قصص فردية

المثل الأعلى

لم يترك المشركون وسيلة لإيذاء النبي ﷺ إلا سلكوها؛ آذوه بالكلام، واتهموه بالكذب والجنون والسحر، وحاولوا قتله وتسميمه، وحصبوه بالحجارة، وألقوا عليه الأقذار والأحشاء، وقاطعوه وأصحابه واضطروهم إلى اللجوء إلى بعض شعاب مكة منبوذين جائعين خائفين، وعذبوهم بالضرب والشتم والتجريح، وتبعوه على طريق المدينة المنورة حين هاجر إليها ليقتلوه وباعوا أملاك أصحابه الذين هاجروا معه إلى المدينة، وقتلوا أصحابه أو أقاربه ومثلوا بجثثهم في أُحد، ومنعوه من أداء العمرة ونقضوا عهدهم معه، وهو مع هذا كله ثابت لم تلن له قناة ولا فُلَّت له عزيمة؛ لأنه مؤمن أن الله معه ولن يخذله، وقد حقق الله له وعده وخرج من كل هذا عزيزاً منصوراً حين فتح الله له مكة.

وقف النبي ﷺ حينها عند باب الكعبة وهو القائد المنتصر، حوله جيش يملؤه الفخر بعزة الإسلام ونصر دين الإسلام، وهو مستعد لتنفيذ كل أمر يصدر عن قائده العظيم، قادر على تخريب مكة فلا يدع حجراً على حجر، وذبح أهل مكة فرداً فرداً، أو حرقهم أو تعذيبهم، قادر على جعل أهل مكة رجالاً ونساءً وأطفالاً عبيداً له ولأفراد جيشه المنتصر، كلمة واحدة من النبي ﷺ كانت كافية لجعل مكة وأهلها أثراً بعد عين،

ولكن النبي ﷺ لم يفعل ذلك ولم يأمر به وهو القادر عليه لو أراد، ولكنه وقف قائلاً: «**يا معشر قريش يا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟ قال أحدهم: نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت. قال النبي ﷺ: أقول كما قال أخي يوسف** ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، **اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

اذهبوا فأنتم الطلقاء، ما أروع هذه الكلمة تصدر عن قائد قادر، العفو عند المقدرة هذه هي أخلاق الإسلام الرائعة وهذا هو تصرف المسلم الحق الذي قال فيه ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤] وقال هو عن نفسه: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

اذهبوا فأنتم الطلقاء، ليست قمة العفو فحسب، وإنما هي قمة الحكمة وبعد النظر، قمة التواضع وقمة الزهد وقمة الإنسانية. إنها كلمة عظيمة لا تصدر إلا من رجل عظيم، إنه النبي محمد ﷺ، إنه قدوة المسلمين، إنه المثل الأعلى.

محو الأمية

في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة جرت معركة بدر الكبرى كما هو معلوم، وكانت نتيجتها استشهاد أربعة عشر رجلاً من المسلمين، وقتل سبعين رجلاً من المشركين وأسر سبعين آخرين.

ماذا فعل المسلمون بهؤلاء الأسرى؟ طلبوا منهم الفداء؛ فمن كان ذا مال افتدى به نفسه، ومن لم يكن له مال ويعرف القراءة والكتابة طلب إليه أن يعلم عشرة غلمان من أولاد المدينة القراءة والكتابة، فإن أتقنوها فُك أسره.

ما أعظم عبقرية هذه الفكرة؛ فالنبي ﷺ بهذا الأمر رفع سوية أبناء المسلمين بتعليمهم، وكرّم الأسرى فجعلهم معلمين لأبناء المسلمين ولم يُهنهم كما كانت تفعل كل الأمم القديمة فتعامل الأسرى أسوأ معاملة، ومازال الأمر كذلك حتى الآن؛ فالأسرى كانوا يقتلون أو يُشغّلون بالأشغال الشاقة أو يعذبون ويُسترقُّون، وحتى يومنا هذا مازالت بعض الدول التي تدعي المدنية والديمقراطية وتنادي بحقوق الإنسان، تضع الأسرى في ظروف معيشية دون ظروف البهائم.

تنادي بعض الدول العربية الإسلامية منذ عشرات السنين بمحو الأمية في بلادها، ونسمع بين الفينة والفينة بمشروع يقوم هنا وبرنامج يدرس

هناك لمحو الأمية خلال مدة زمنية تحددها هذه المشاريع أو البرامج، ونغمض أعيننا ونفتحها ولا نرى شيئاً وينطبق علينا المثل (أسمع جعجعة ولا أرى طحناً).

لو أن الحكومات الآن طبقت هذه الخطة الذكية التي طبقها المسلم الأول قبل أربعة عشر قرناً لخلصت من الأمية منذ زمن بعيد، وذلك باستغلال الطاقات المهدورة لآلاف الشباب الذين يدعون إلى خدمة العلم ويقضون معظم أوقاتهم في التمطي أو لعب (الطرنيب)، وباستعمال البطالة المقنعة لعشرات آلاف الموظفين والموظفات الذين يقضون أوقاتهم في حل الكلمات المتقاطعة، أو فك ألغاز الأحاجي أو شغل الصوف أو حفر الكوسا وتخريط الفاصولياء... يستطيع أي من هؤلاء وأولئك التضحية كل يوم بساعة واحدة من وقته غير الثمين لتدريس عشرة أميين لا أكثر، وإذا افترضنا أن عدد الذين يمكن تكليفهم بهذا العمل خمسون ألف شخص (وهم أكثر بكثير)، وكانت مدة الدورة ثلاثة أشهر (ساعة كل يوم و٢٥ يوماً كل شهر) - كان عدد الذين يخرجون من الأمية نصف مليون أمي كل ثلاثة أشهر أي مليونين كل سنة، فإذا استمر البرنامج ثلاث سنوات فحسب خرج من الأمية ستة ملايين أمي في سورية، وما أظن عدد الأميين يزيد فيها على هذا الحد الذي يعادل نحو ثلث عدد السكان. وقد يتساءل بعضهم عن الأمكنة اللازمة لتطبيق هذا البرنامج والأموال التي يجب أن ترصد لذلك. والجواب أن الأمكنة موجودة في المساجد والمدارس وحتى الحدائق أو بيوت بعض المواطنين في الأرياف، أما الأموال فلا يلزم منها غير الشيء اليسير جداً وهو ثمن السبورات والطباشير والكتب والدفاتر والأقلام التي يجب أن توزع مجاناً. وهذا كله لا تزيد تكلفته على تكلفة فاتورة هاتف واحدة لدائرة من دوائر الدولة، أو ثمن الورود والأزهار التي تقدم في المناسبات المختلفة ومصيرها حاويات القمامة بعد ساعات.

الوقت والجهد والفكر كل هذا له قيمة في الإسلام، وقد عرف المسلمون الأوائل هذه القيم فاستغلوها وأضاعها الناس من بعدهم فضاعوا وأضاعوا.

قوتي لك مع فضلك

أربع كلمات هنّ ذروة البلاغة وقمة الإيثار، حَسَمْن موقفاً من أدق المواقف في تاريخ الإسلام والمسلمين، فما قصة هذه الكلمات الأربع؟.

حين توفي الرسول الكريم ﷺ اجتمع الأنصار والمهاجرون، كما هو معلوم، في سقيفة بني ساعدة للبحث في الوضع واختيار خليفة للرسول ﷺ، واقترح بعضهم أن يكون الخليفة من الأنصار مرة ومن المهاجرين مرة، واقترح غيرهم أن تكون الخلافة لإحدى الفئتين والوزارة للفئة الأخرى، ووصل السقيفة في أثناء ذلك أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضوان الله عليهم أجمعين، وحسم النقاش لمصلحة المهاجرين واتجهت الأنظار إلى أبي بكر وعمر، وهنا بادر عمر فمد يده إلى أبي بكر قائلاً: "**مد يدك لأبايعك أنت أفضل مني. فقال أبو بكر: وأنت أقوى مني، فأجاب عمر على الفور: قوتي لك مع فضلك**".

كان عمر يعرف فضل أبي بكر؛ فهو المعروف في الجاهلية بالصدق والأمانة بين قومه، وهو الذي كان يحمل الديات والمغارم فيقبل به الناس دون غيره، وهو الذي كان يكرم الفقير ويساعد المحتاج، ثم كان بعد ذلك أول من أسلم، وهو الذي رافق النبي ﷺ في حياته كلها لم يتركه ساعة واحدة، وكان يصدّقه في كل ما كان يقوله دون تردد ولا تفكير حتى

سمي (الصدّيق)، وهو الذي ذاد عن النبي ﷺ بنفسه وبماله حين لم يترك المشركون وسيلة إلا حاولوا إيذاءه بها، وخاطر بحياته حين هاجر معه إلى المدينة، واشترك معه بعد ذلك في جميع الغزوات لم يتخلف عن واحدة منها، وكان الناس يعرفون مكانة أبي بكر عند النبي ﷺ، ولا سيما حين طلب إليه أن يصلي بالناس في مرضه الأخير، وكيف أصر على ذلك بشدة.. كان عمر يعرف كل هذا وأكثر من هذا عن صديقه ورفيق دربه الصدّيق، وكان في الوقت نفسه يفكر في مستقبل المسلمين في هذه المرحلة العصيبة، ويفكر في القائد الذي يمكن أن يتمتع بثقتهم دون عناء ولا تكلف، فلم يجد بداهة أفضل من أبي بكر يجمع عليه الناس، لذلك بايعه وهو يقول له بنفس طيبة وإخلاص كامل لا يعرف النفاق ولا الخداع: "أنت أفضل مني"، ولكن أبا بكر كان يفكر في الوقت نفسه في مستقبل المسلمين وفي صفات القائد الذي يجب أن يقودهم في هذه المرحلة الحرجة، وأدرك بفطنته أن القائد يجب أن يكون قوياً يهابه الناس ويخشون بأسه، ومن لها لذلك غير عمر المعروف بشدته في الجاهلية وبشدته ومواقفه العظيمة في الإسلام، لا يخشى في الحق لومة لائم ولا يهاب أحداً إلا الله والحق، لذلك كان جوابه لعمر: "وأنت أقوى مني"، وهنا كانت عبقرية عمر وإخلاص عمر وإيثار عمر وعظمة عمر حين أجاب بلا تردد: "قوتي لك مع فضلك".

هل هناك أروع من هذا التفكير وأجمع من هذه الكلمات وأنبل من هذا الموقف، قوتي لك استعمل هذه القوة لمصلحة المسلمين لا لمصلحتي ولا لمصلحتك، وأنت خير من يحسن استعمالها لما لك من فضل يعرفه الجميع ويقر به الجميع...

لم يكن أبو بكر ضعيفاً بل كان حكيماً، ولكنه كان مع حكمته حين يجد الجد قوياً، وحين أضيفت إلى حكمته ورويته وحسن تفكيره قوةُ عمر

وبأسه، اجتمعت كل مقومات الحكم الرصين القوي الذي يستطيع إدارة الدفة وإيصالها إلى شاطئ السلامة في ظرف من أخطر الظروف التي تمر بالمسلمين الذين فقدوا رسولهم وقائدهم ومعلمهم، ولم يُعدّوا لذلك عدتهم ولا أخذوا أهبتهم، ولا كان لهم في الحكم ركز أو سابقة، لم يكن لهم إلا الفهم العميق لهدي القرآن وتعاليم الرسول ﷺ، إضافة إلى سلامة الفطرة ويقظة الضمير وصدق العقيدة، اجتمع لهم هذا فأنجبوا عباقرة وعظماء، إن لم يكن فيهم إلا أبا بكر وعمر وأمثالهما من الصحابة والتابعين وهم كثر - فكفاهم فخراً.

هؤلاء هم المسلمون الذين لم يتناحروا للوصول إلى الحكم فيستغلوه ويستغلوا شعبهم، بل اتفقوا للوصول إلى الحكم ليخدموا شعبهم ويرفعوه إلى أعلى درجات المجد وأرقى مراتب العزة.

خطاب العرش

بعد أن بايع المجتمعون في سقيفة بني ساعدة أبا بكر الصديق ﷺ بالخلافة، وقف متكلماً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"أما بعدُ أيها الناس، فإني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي عندي حتى أريح (أي أرد) عليه حقه إن شاء الله تعالى، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

تقضي التقاليد أن يلقي رؤساء الدول حين استلامهم الحكم أو رؤساء الوزارات حين تشكيل وزاراتهم ما يسمى خطاب العرش أو البيان الوزاري حسب الحالات.. فيتعهدوا لشعوبهم أمام ممثليهم بحفظ البلاد واحترام الدستور وإشاعة العدل، ورفع مستوى العيش ونشر التعليم والقضاء على الفقر (وحديثاً نشر الديمقراطية والقضاء على الإرهاب!!). وهكذا يعدون الناس أحلى الوعود ويمنونهم بأحلى الأماني، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم لن يفوا بعهودهم، حتى إذا تمكنوا من الحكم نسوا

الوعود ونقضوا العهود والتفت معظمهم إلى الاستبداد أو إلى استغلال كل شيء لمصالحهم الشخصية، والمتابع لنشرات الأخبار منذ عشرات السنوات قد سمع، وما زال يسمع، هذه البيانات التي تفنّن بعضهم قديماً وحديثاً في سبكها وأطال في شرحها، حتى قد يستمر إلقاء بعضها الساعات الطوال، كما كان يفعل هتلر وموسوليني وكما لا يزال يفعل بعض رؤساء الدول... ولما كانت الشعوب قد ألفت الاستماع إلى هذه البيانات فإنها في الغالب لا تعيرها أي اهتمام؛ لأنها تعلم سلفاً أنها (صف كلام) وأن الكذب سمتها الأولى والخداع صفتها المميزة..

هذا ما يحدث في عصور الرقي والتمدن، ولنقارن بين هذه البيانات وبين الكلمة التي ألقاها الخليفة الأول أبو بكر الصديق والتي أثبتناها في بدء هذه القصة.

عشر جمل لم يستغرق إلقاؤها أكثر من بضع دقائق كانت أبلغ من مئة دستور وخمس مئة بيان وزاري وألف قرار ومرسوم وبلاغ...

"أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم" قمة التواضع وتقدير النفس واحترام الناس.

"فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني" فهو إذن يطلب الرقابة الدائمة على أعماله وتقديرَها، ويطلب المساءلة على ما يقوم به، ويطلب العون للسير في الطريق القويم إن سلكه، وفي الوقت نفسه يطلب تقويمه إن أخطأ، وهكذا وضع الناس موضع (هيئة الرقابة والتفتيش) ووضع نفسه موضع المراقَب المحاسَب.

"الصدق أمانة والكذب خيانة" على هذه القاعدة يقوم الحكم الصحيح؛ الصدق في القول، الصدق في العمل، الصدق في القضاء، الصدق في التعامل، الصدق مع النفس، الصدق مع الله، الصدق مع الناس...

"الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله تعالى، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله". وهل يقوم العدل إلا على هاتين الخصلتين، هل يأمن الناس إلا إذا وصل إلى كل ذي حقٍّ حقُّه فلم يَظلم القوي ولم يُظلم الضعيف؟.

"لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل" وهل أجمل من هذه الدعوة التي تركها المسلمون فوصلوا إلى ما هم عليه الآن من هوان، الجهاد ليس الحرب والقتال فحسب ولكن الجهاد في كل شيء؛ الجهاد في تقويم النفس، الجهاد في طلب العلم، الجهاد في محاربة الرذيلة، الجهاد في نشر الفضيلة، الجهاد في وقفة ضد الظلم، الجهاد في الجهر بالحق...

"لا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء" لقد كان هذا صحيحاً في الزمن الغابر ومازال حتى الآن، وهو يبدو أوضحَ وأبعد أثراً في هذا الزمن. فقد كثرت الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ودخلت البيوت والمدارس، وعششت في دوائر الدولة ومراكز الأعمال وتغلغلت في المصانع والمزارع، وتنوعت مظاهرها وتعدّدت وسائلها، ولم يقتصر ارتكابها على الجهلة وصغار الناس، بل غرق في ارتكابها كبار الزعماء وأعاظم المسؤولين في كل قطر ومصر، وظهرت نتائجها السيئة حيثما انتشرت، وها هو العالم يشكو من تداعياتها وآثارها الخطرة سواء في البيئة التي تلوّثت أو في المجاعات التي فشت أو في البيوت التي دمرت أو في الأمراض التي عمت وحصدت، وما زالت تحصد، الملايين، ولعل آخرها وليس أخيرها كما يبدو داء نقص المناعة المكتسب (الإيدز)، وما يجره على البشرية من مصائب صحية وأخلاقية واجتماعية واقتصادية، لها أول وليس لها آخر..

" أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم" ينهي القول كما بدأ بوضع نفسه موضع المراقَب، ووضع

الناس موضع المراقبين المحاسبين، ولا يكتفي بذلك فحسب بل يبرئهم من طاعته إن عصى الله ورسوله وهل أبلغ من هذا وأعدل وأكثر ديمقراطية وتواضعاً وإنصافاً؟.

اسمعوا أيها المتشدقون بالديمقراطية ونشر العدالة ومبادئ الحرية!. وتعلموا قول الصدق.

عفة عجوز

قسم أبو بكر ﷺ مالاً بين النساء، وبعث إلى عجوز من بني النجار بقسمها من هذا المال مع زيد بن ثابت.

قالت العجوز: ما هذا؟ قال زيد: مال قسمه أبو بكر بين النساء! قالت العجوز: أترشونني عن ديني؟ قال زيد: لا! قالت العجوز: أتخافون أن أدع ما أنا عليه؟ قال زيد: لا.

قالت العجوز: والله لا آخذ منه شيئاً.

عن كتاب: أبو بكر الصديق
لعلي الطنطاوي

الإسلام يصنع العجائب فهذه العجوز المسلمة تؤمن أن لها رباً يرزقها ويحميها، تؤمن أن الدنيا فانية ولا فائدة من الاستزادة فيها من المال إن كان عندها منه ما يكفيها.

وتؤمن أن الآخرة هي دار البقاء، وعليها لذلك التزود في الدنيا بما يكفل لها الوصول إلى الآخرة آمنة مطمئنة، فتزيل من نفسها الطمع وتأبى لذلك أن تأخذ المال، ولو أنه مال حلال ورزق يأتيها من خليفة رسول الله؛ لأنها لا تبغي إلا وجه ربها، وتعلل رفضها أخذ العطية بعفوية عجيبة وبديهة عميقة؛ فهي من جهة مؤمنة عن عقيدة راسخة،

وليست بحاجة إلى من يرشوها لتثبيت عقيدتها، وهي من جهة ثانية ليست من المؤلفة قلوبهم لتنال مالاً زاغت عن عقيدتها إن لم تنله!.

في هذه القصة درس قيم لكل الطامعين اللاهثين وراء تكديس الأموال في المصارف في الداخل وتهريبها للمصارف في الخارج، وحبذا لو يكتفي الناس الآن بجمع المال الحلال ويعفّوا عن السعي وراء المال الحرام بكل أشكاله، وما أكثر هذه الأشكال في هذه الأيام وما أكثر المشوقات إليها!!.

لا ميزة لأقرباء الحاكم

خرج ابنا عمر عبد الله وعبيد الله في جيش إلى العراق، فلما قفلا مرّا على أبي موسى الأشعري، وهو والي البصرة فرحَّب بهما، وقال: لو أقدر على أمر أنفعكما به لفعلت، ثم قال: بلى فههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين، أسلفكماه فتبتاعان به من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين، ويكون لكما الربح. ففعلا وكتب إلى عمر أن يأخذ منهما المال.

فلما قدما على عمر قال: أكل الجيش أسلف؟ قالا: لا!. قال: أديا رأس المال وربحه، أما عبد الله فسكت، وأما عبيد الله فقال: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين، لو هلك المال أو بعضه لضمناه، قال: أديا المال، فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله، فقال رجل من جلساء عمر: يا أمير المؤمنين اجعله قراضاً[1]، قال عمر: قد جعلته قراضاً. فأخذ رأس المال ونصف ربحه وأخذا نصف ربحه.

عن كتاب: شهيد المحراب عمر بن الخطاب
لعمر التلمساني

أول ما سأل عنه عمر "أكل الجيش أسلف؟" أي هل كانت هناك مساواة بالتعامل بين كل أفراد الجيش، لماذا؟ لأنه يأبى أن يكون لولديه

---

(١) القراض: المقاسمة.

ميزة على غيرهما، وما كان لهما أن يستفيدا وهما ابنا الخليفة ما يزيد على ما يستفيد منه غيرهما حتى لو كانت الفائدة معنوية، وإلا اختل ميزان العدل وهو ما يأباه الإسلام ويأباه لذلك عمر؛ لأن الأمر لو شاع لفسد ابنا عمر واستمرآ الموضوع وحاولا تكراره، ولفسد الناس بعدهما؛ لأنهم فقدوا رجال القدوة الذين يعملون بشرع الله بإخلاص وصدق.

وأولُ ما طلب عمر إعادةُ المال وربحه إلى بيت مال المسلمين؛ ليكون ذلك عبرة لكل الناس؛ فلا يستغلون مراكزهم أو قرابتهم للحكام لمصلحة شخصية مادية كانت أم معنوية!.

أين هذا مما نسمعه ونراه كل يوم في هذه الأيام؛ أكابر الحكام لا في البلاد المتخلفة فحسب، بل في كل بلاد العالم المتمدن شرقه وغربه - يستغلون مراكزهم لكسب أو نهب ملايين بل مليارات الدولارات واليوروات والجنيهات مباشرة أو باستخدام أقاربهم أو أبنائهم أو إخوانهم (لينفِّعوهم) بتعهدات المشاريع الكبيرة أو بالاشتغال بالأعمال الحرة!! (بيزنس) خفية من وراء الكواليس، أو جهاراً نهاراً و(على عينك يا تاجر) دون حياء ولا خجل. وحين ينكشف المستور وتفضح الأمور في وسائل الإعلام أو أروقة المحاكم، تدبّر القضايا وتلفلف بكل شرف وأمانة!! ويخرج منها المسؤولون أبرياء أنقياء أتقياء، أو تكسر الجرة برأس مسكين من مساكين الله الذين غرر بهم ليكونوا ضحايا هذه المؤامرات البشعة، ولكي ترجع للصوص كرامتهم على ما اتهموا به زوراً وبهتاناً!! يكافؤون بترقيتهم في أعمالهم أو تسند إليهم وظائف في (الخارج) بعيداً عن أعين الحاقدين والحاسدين!. نسمع بين الحين والحين عن مثل هذه الأمور في إنكلترة وأمريكة حاميتي الحريات وناشرتي الديمقراطيات، في اليابان أم التقاليد العريقة، وفي السويد وألمانية وفرنسة وإيطالية... صاحبات الحضارة العظيمة والنظريات الاقتصادية القويمة، ألا يكفينا كل هذا

كيلا نصدق بعد الآن كل ما يحاوله هؤلاء جميعاً وغيرهم من غش العالم وإقناعه بحضارتهم التي يريدون تصديرها إلينا، ويضحون في سبيل ذلك بفلذات أكبادهم في جيوشهم الجرارة التي يسمح لها باستعمال كل أنواع أسلحة الدمار الشامل، جزاهم الله عنا كل شر!!!.

السر والعلن

بينما عمر يعس في حواشي المدينة المنورة وهو خليفة المسلمين إذ عَيِيَ فاتَّكأ على جانب جدار في جوف الليل، وإذا بامرأة تقول لابنة لها: قومي إلى ذاك اللبن فامذقيه[1] بالماء، قالت لها: يا أماه أو ما علمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادى لا يشاب اللبن بالماء، فقالت: يا بنية قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنه بموضع لا يراك فيه عمر ولا منادي عمر. فقالت: يا أماه إن كان عمر لا يعلم فإله عمر يعلم، والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء..

عن كتاب: الخليفة الزاهد
عمر بن عبد العزيز
تأليف عبد العزيز سيد الأهل

هذه القصة معروفة ومذكورة في كتب كثيرة، وبقية القصة معروفة كذلك، فإن عمر بن الخطاب أعجبه جواب الفتاة وتقصاها ليعرفها، ولما عرفها زوجها لابنه عاصم وقال فيها: ما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب. وقد كان ذلك فعلاً فإن هذه الفتاة أنجبت لعاصم ابنة

(١) المذق: المزج.

أسمتها أم عاصم، وتزوجت هذه من عبد العزيز والي مصر فأنجبت عمر الذي أصبح خليفة المسلمين، وكانت خلافته عصراً ذهبياً من عصور الإسلام المليئة بالمآثر.

هذه الفتاة مع بساطة هذه القصة دليل على ما يتحلى به المسلم من الأخلاقِ الحميدة الأخلاقِ الإسلامية المبنية على عقيدة ثابتة صادقة؛ فالخير خير بذاته وفعله واجب والجدير به أن يكون في السر كما يكون في العلن، والشر شر بذاته واجتنابه واجب سواء في السر أو في العلن.

أين هذا مما نراه الآن من التظاهر بالمظهر الملتزم والادعاء بفعل الخير والباطن يخالف الظاهر؟ الرجال يرخون لحاهم وفي أيديهم سبحاتهم يلاعبون حباتها بأصابعهم، والنساء يضعن البراقع المغطية لوجوههن والنظارات السود على أعينهن، ثم لا يتورع كثير من هؤلاء وهؤلاء عن القيام سراً بما لا يرضي الله ويتنافى مع أبسط تعاليم الدين ومبادئ الأخلاق.

لقد فهمت هذه الفتاة من منادي عمر أن مذق الحليب بالماء غش، فأبت أن تغش لترضي الله الذي ينهى عن الغش ولو غضبت أمها؛ لأن رضا الله أعظم وأهم، وغضبه أنكى وأعم.

لو أن كل إنسان فهم هذا الفهم وسلك هذا السلوك لانتفت المعاصي وزالت الأخطاء عن قناعة ورضا، لا عن خشية وخوف، ولعرف كل إنسان حده فوقف عنده، ولزال الغش والخداع والرذيلة وساد الحق والعدل والفضيلة، وعاش الناس بأمان واطمئنان دون خوف في دنياهم ولا فزع من أخراهم.

وأمر آخر نستخلصه من هذه القصة انتبه إليه عمر حين اختار هذه الفتاة الأعرابية البسيطة زوجة لابنه عاصم عملاً بالقول (تخيروا لنطفكم)،

والاختيار لا يكون بالحسب والنسب والمال، وإنما بالأخلاق الكريمة والنفس الطيبة والروح الزكية، وقد تنبأ عمر وصدقت نبوءته وخرج فعلاً من هذه الفتاة فارس ساد العرب، وأين هذا أيضاً مما نراه الآن عند كثير من الناس من التفتيش عن الفتاة الغنية أو الفتاة التقدمية (المودرن) أو الفتاة (المدعومة) للوصول بواسطتها إلى مآرب دنيوية قريبة وقد تكون مآرب دنيئة، وكذلك التفتيش عن الشاب الغني ليوفر للفتاة سيارة فارهة وداراً واسعة وأثاثاً ورياشاً وما إلى ذلك من مظاهر الدنيا، غير ملتفتين إلى ما هو أهم من هذا: راحة الضمير والقناعة والرضا، لبناء أسرة قويمة تخرج جيلاً قويم الأخلاق متين العقيدة يفيد نفسه ومجتمعه وبلده...

الأمير الفقير

وفد على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعض من يثق بهم من أهل حمص فطلب إليهم أن يكتبوا له فقراءهم، فرفع إليه كتاب فإذا فيه اسم سعيد بن عامر، فقال عمر: من سعيد بن عامر؟ قالوا: يا أمير المؤمنين أميرنا، قال: وأميركم فقير؟ قالوا: نعم، قال: كيف يكون أميركم فقيراً أين عطاؤه أين رزقه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين لا يمسك شيئاً.

بكى عمر ثم عمد إلى ألف دينار فصرَّها وبعث بها إليه وقال: أقرئوه مني السلام وقولوا له بعث بها إليك أمير المؤمنين فاستعن بها على حاجتك. فجاء بها الرسول فنظر إليها فإذا هي دنانير فجعل يسترجع، فقالت امرأته: أصيب أمير المؤمنين؟ قال: أعظم! قالت: أظهرت آية؟ قال: أعظم من ذلك! قالت: فأمر من الساعة؟ قال: بل أعظم من ذلك، قالت: فما شأنك؟ قال: الدنيا أتتني، الفتنة أتتني ودخلت علي، قالت: فاصنع بها ما شئت، قال: أعندك عون؟ قالت: نعم. فصرها دنانير صرراً ثم جعلها في مخلاة ثم بات يصلي حتى أصبح، ثم اعترض جيشاً من جيوش المسلمين فأمضاها كلها فقالت له امرأته: لو كنت حبست منها شيئاً نستعين به! فقال لها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لو اطلعت امرأة من أهل الجنة على الأرض لملأت الأرض من ريح المسك، وإني والله ما اختار عليهن.

عن كتاب: شهيد المحراب عمر بن الخطاب

عمر التلمساني

ولسعيد بن عامر هذا قصة أخرى نوردها باختصار.

حين زار عمر بن الخطاب حمص ليتفقد أحوالها جاء أهلها للسلام عليه فقال لهم: كيف وجدتم أميركم؟ فشكوه إليه وذكروا أربعاً من أفعاله كل واحد أعظم من الآخر، فجمع عمر بينه وبينهم ليسمع أقوالهم ورد الأمير عليها، وكانت الشكوى الأولى أنه لا يخرج إليهم حتى يتعالى النهار، وكان رده على ذلك أنه ليس لأهله خادم، فهو يقوم صباحاً فيعجن العجين ثم ينتظره حتى يختمر فيخبزه ثم يتوضأ ويخرج للناس.

والشكوى الثانية أنه لا يجيب أحداً بليل، وكان جوابه أنه جعل النهار لهم والليل لله عز وجل. والشكوى الثالثة أنه لا يخرج إليهم يوماً في الشهر، وكان جوابه أنه ليس له ثياب غير التي عليه فيغسلها مرة في الشهر وينتظرها حتى تجف ثم يخرج للناس في آخر النهار.

أما الشكوى الرابعة فكانت أنه تصيبه من حين إلى آخر غشية فيغيب عمّن في مجلسه، وكان جوابه: شهدت مصرع خبيب بن عدي وأنا مشرك ورأيت قريشاً تقطع جسده وهي تقول: أتحب أن يكون محمد مكانك؟ فيقول: والله ما أحب أن أكون آمناً في أهلي وولدي وأن محمداً تشوكه شوكة. وإني والله ما ذكرت ذلك اليوم وكيف أني تركت نصرته إلا ظننت أن الله لا يغفر لي وأصابتني تلك الغشية.

بعد سماع هذه الإجابات قال عمر - وكان يحسن الظن بسعيد بن عامر -: الحمد لله الذي لم يخيب ظني به. وأمر له بألف دينار كان نصيبها نصيب الألف الأولى، فقد فرقت ليلتها على الفقراء والمساكين ولم يحتفظ سعيد لنفسه منها بدينار واحد.

عن كتاب: صور من حياة الصحابة
د. عبد الرحمن الباشا

ما رأي معظم كبار موظفي اليوم في دول العالم كله، الإسلامية منها وغير الإسلامية؟ لو رفع سعيد بن عامر هذا رأسه وأطل عليهم ونظر ما يصنعون ما سيكون موقفهم منه؟ أما هو فإنه لا شك سيغشى عليه أو

سيصعق ويعود ميتاً في الحال قبل أن يكون لديه متسع من الوقت للاسترجاع كما فعل حين أقبلت عليه الدنيا في حياته الأولى، أما هم فستحمر وجوه بعضهم خجلاً ويتصبب منهم العرق، وتخرسهم المفاجأة فيشيحون بوجوههم ولا ينبسون ببنت شفة، في حين يرى معظمهم أن سيرة سعيد بن عامر تدل على خَبله لأن الذكي (مثلهم) هو الذي ينتهز الفرص ويغتنم المناسبات، وما دامت الدنيا قد أقبلت عليهم فلماذا لا يحلبون الضرع حتى يجف، ويغترفون من الحلال والحرام ما تقر به عيونهم ويملأ جيوبهم وخزائنهم، ويغني مصارف العالم في الداخل والخارج مما أفاض الله عليهم من نعمه؟.

كان الناس في الماضي يعفون عن تولي الإمارة أو القضاء أو الإفتاء تهيباً وحرصاً، أما الآن فإنهم يسعون وراء كل هذا، بل وينفقون الأموال الكثيرة للوصول إلى بعض المناصب، ونسمع دائماً بملايين الجنيهات والدولارات واليوروات التي تنفق في الحملات الانتخابية للوصول إلى (تمثيل الشعب) في المجالس النيابية وغير النيابية، أو تنفق في الحفلات الضخمة وما يتبعها للوصول إلى بعض مراكز الدولة؛ لأن ما سيجنيه هؤلاء بعد وصولهم من منافع مباشرة وغير مباشرة يفوق ما أنفقوه بكثير، والموضوع موضوع تجارة ومنافع مشتركة ومصالح متبادلة.

هذا هو المفهوم الجديد للمنصب في عصر (التقدم)، فأين منه مفهوم سعيد بن عامر في عصر (التخلف)؟!.

الأسوة الحسنة

وجد علي بن أبي طالب - وهو أمير المؤمنين - درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح - قاضيه - يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنها درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل شريحٌ النصرانيَّ: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ فضحك وقال: أصاب شريح.. مالي من بينة. فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه. إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء؛ أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه وقاضيه يقضي عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والدرع - والله - درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال: أما إذا أسلمت فهي لك.

وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاءً في قتال الخوارج يوم النهروان.

عن كتاب: عبقرية الإمام علي
لعباس محمود العقاد

ألم يكن بيد أمير المؤمنين الإمساك بتلابيب هذا اللص وأخذ درعه منه عنوة؟ أما كان بإمكان أمير المؤمنين إرسال اثنين أو أكثر من رجاله

يربون هذا السارق ببضع لكمات أو ببضع ركلات ويستخلصون الدرع ومعها شيء من ثيابه أيضاً؟.. ألم يكن أمير المؤمنين قادراً على أن يعزل القاضي أو يسجنه لأنه لم يحكم له بالدرع؟

لو جرى مثل هذا الحادث مع أي رجل عادي في أي بلد من بلاد العالم المتمدن، أما كان يمسك باللص فيصفعه وينهكه ضرباً بعد أن يوجه له ما حفظ من شتائم وما يرتجل منها؟.

فكيف لو أن هذا الرجل بيده شيء من السلطة أو قريبٌ من رجل بيده شيء من السلطة ولو من الدرجة العاشرة؟..

ولكن علي بن أبي طالب يجب أن يكون قدوة ويسير لذلك بمنهج الإسلام درجة بعد درجة؛ يلجأ إلى القضاء أولاً، ويطبق طريقة التقاضي بتقديم البينة ثانياً، ويرضى بحكم القاضي ولو أنه ضده ثالثاً، ويكون في غاية الكرم والجود والصفح حين يقدم الدرع للنصراني رابعاً. أليست هذه كلها من أخلاق الإسلام وتعاليم الإسلام التي تمثلت في سلوك كل مسلم في عهد النبوة والصحابة وتابعيهم الأولين؟!.

لقد أيقظ هذا السلوك ضمير النصراني فعاد للاعتراف، وحرّك فيه عقله الذي دفعه إلى اعتناق الإسلام.

نشأ علي رضي الله عنه في بيت النبوة وتخلق بأخلاق الإسلام ودافع عنه وجاهد في سبيله، ومآثره أكثر من أن تحصى بدءاً من ليلة الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة حين بقي في فراش النبي ﷺ ليوهم المشركين بوجوده، وما في ذلك من تعريض حياته للخطر الشديد، إلى مناصرته كل الخلفاء الراشدين الذين سبقوه ولاسيما دفاعه عن عثمان رضي الله عنه وعنهم أجمعين، وحتى مواقفه حين تولى الخلافة.

لقد كانت حياته سلسلة مواقف كلها مشرفة، تدل على عمق إيمانه

وكرم أخلاقه وحسن تعامله حتى مع أعدائه؛ منها مثلاً موقفه حين حال جند معاوية بين جنده وبين الماء في إحدى المعارك وهم يقولون: لن تنالوا الماء حتى تموتوا عطشاً. فحمل عليهم وأجلاهم عن الماء ثم سمح لهم بوروده كما يرده جنده.

وموقفه حين أوصل السيدة عائشة إلى المدينة المنورة بعد معركة الجمل، وأرسل معها لحمايتها عدداً من الجند تبين بعد وصولها أنهم كانوا من النساء اللواتي ألبسهن لباس الرجال وسلحهن بسلاحهم، فهل بعد هذا من شهامة؟ وهل يعمل الآن مثل هذا أحد من أدعياء الدفاع عن حقوق الإنسان واحترام إنسانيته والدفاع عن المرأة والسعي لمساواتها مع الرجال؟ وها نحن نرى بعض رؤساء الدول الكبيرة وأذنابهم ماضين في حصار شعب بكامله ومانعين عنه كل احتياجاته حتى الغذاء والدواء، وممعنين في قتل النساء والشيوخ والأطفال بوحشية دونها وحشية حيوانات الغابات.

ويكفي الإسلام فخراً أن أنجب مثل علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وغيرهم ممن يعدون بالمئات، وهؤلاء الحكام الذين يحاربون الإسلام والمسلمين أحرِ بهم أن يدرسوا حقيقة الإسلام وسيرة حكام المسلمين، وهم لو فعلوا ذلك وكان فيهم ذرة من حياء لخرسوا أو لدفنوا أنفسهم وهم أحياء، ولكن صدق المثل: الذين استحوا ماتوا!.

فاتح ومغتصب

لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا: قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم. فقال أهل حمص: لَوِلايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود وقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب عليها ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد.

عن كتاب: فتوح البلدان
للبلاذري

من المعلوم أن غرض الفتوح الإسلامية كلها كان هداية الناس إلى دين الإسلام لنفع البشرية ورفع مستوى البشر.

وكان المسلمون مع ذلك لا يجبرون أحداً على الدخول في الإسلام فمن دخل فيه من أي دين كان عن طوع بملء إرادته أصبح له مباشرةً حقوق المسلمين سواء بسواء. ومن لم يرد دَفَعَ الجزية التي لم تكن إذلالاً

له واحتقاراً ولا إرغاماً لتغيير دينه، وإنما كانت لحمايته والدفاع عنه وتقديم كل ما يحتاج إليه من عون، كما تُقدم كل هذه الأمور للمسلمين أنفسهم، مع احتفاظ هؤلاء (الذين كانوا يسمون الذميين أو أهل الذمة) بدينهم وممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية واحترام.

وكلمة الذمي تدل على معناها؛ فهؤلاء هم في ذمة المسلمين: أي في حماهم مصونين معززين مكرمين، وكان من البديهي نتيجة لذلك أن الفاتحين لو عجزوا لسبب ما عن القيام بتعهداتهم تجاه الذميين وجب عليهم أن يخرجوهم من ذمتهم، ولا يستمروا في أخذ الجزية منهم، أو أن يعيدوا إليهم ما كانوا أخذوه.

وهذا ما حدث فعلاً في مدينة حمص كما تذكر القصة التي أثبتناها في البدء، فحين اضطر جيش المسلمين إلى الانسحاب من حمص ليلحق ببقية جيوش المسلمين استعداداً لمعركة اليرموك العظيمة أعاد الجزية لأهلها، وحين بين لهم قائد الجيش أسباب ذلك ولمسوا إخلاص المسلمين وصدقهم وشهامتهم أبوا أن يستردوا الجزية حتى كتب الله النصر للمسلمين، وعادوا إلى حمص مع كل احترام أهلها ومحبتهم.

هذا ما جرى قبل ألف وخمس مئة سنة تقريباً، قام به أناس أتوا من عرض الصحراء لا عهد لهم بالحضارة، ولا بما يسمى في وقتنا الحاضر القوانين الدولية والمواثيق والمعاهدات، وإنما كانوا يحملون فهماً منقطع النظير لفقه الجزية وفلسفتها والغاية من وضعها، لذلك كان من البديهي أن يتصرفوا كما تصرفوا..

ذكرتني هذه القصة والشيء بالشيء يذكر بالسيئ الذكر بوش الذي زعم وطغمته كذباً وزوراً وبهتاناً أنه ذهب يحرر أفغانستان من التخلف والرجعية، وذهب يحرر العراق ويخرج أهلها من الظلم والجور إلى الحرية والديمقراطية، جاء ولم يشتكِ إليه أهل العراق ولا أهل أفغانستان

سوء حالهم، وإنما دفعه إلى هذه المكارم (وهو أبو المكارم) وجدانه الطاهر وضميره الحي الفياض، واندفاعه الذي لا حدود له لنشر الحريات في العالم شرقه وغربه شماله وجنوبه، ولو تجشم في سبيل ذلك أصعب الصعوبات ولو خرب الدنيا وملأها دماراً، ولو استعمل الغش والكذب والخداع لكل شعوب العالم ولشعبه في جملتهم، ولو أنفق في حروبه في سبيل الحرية والديمقراطية كل مخزون أمريكة من الدولارات، ولو دمر البلدان فجعل عاليها سافلها، ولو سحق آلاف الناس بدباباته العملاقة وخرب آلاف البيوت بطياراته المدمرة، ولو هدم المساجد على المصلين والكنائس على المتعبدين والمدارس على الأطفال المساكين، ولو استعمل كل ما حرمته القوانين الدولية من أسلحة الدمار الشامل التي أتى لتخليص العراقيين مما كان مخزوناً عندهم منها كما زعم، ولو ارتكب جنوده السفهاء كل أنواع الحماقات والسفالات والرذالات في سجني غوانتينامو وأبي غريب وأمثالهما. هل يوجد في الدنيا من يصدق بأن فاتحاً يعيد الجزية لبلد ينوي النزوح عنه؛ لأنه لن يستطيع القيام بتعهداته تجاهه في زمن لم تكن معاهدات دولية ولا مجلس أمن ولا هيئة أمم متحدة، وأن محتلاً يأتي بعد ذلك بألف وخمس مئة سنة يضرب بكل ما في عصره من معاهدات ومواثيق وأعراف عرض الحائط فيخالف كل مبدأ ويخترق كل قانون ويحتقر كل شريعة؟ ولماذا هذا كله؟ لأمر بسيط؛ هو أن هذا الفاتح الجديد مغتصب فقد الأخلاق وفقد الضمير وفقد العقل وفقد الإنسانية، في حين كان الفاتح الأول يتمتع بالمزايا التي حملها إليه الإسلام فعقّله وعلمه وهذّبه، حتى أصبح بحق إنساناً كاملاً، يكفي بأن يوصف بأنه مسلم..

الثبات على العقيدة

ظفر المشركون بعد غزوة بدر بأحد أصحاب رسول الله ﷺ (خُبيب بن عدي) فأسروه وأرادوا أن ينتقموا لقتلاهم في بدر بقتله.

دعا زعماء قريش أهل مكة إلى حضور (الاحتفال) بإعدام خبيب في منطقة التنعيم بقرب مكة، وساروا في مقدمة الجموع المحتشدة رجالاً ونساءً وأطفالاً إلى ساحة الإعدام حيث قدموا أسيرهم مكبلاً بقيوده نحو خشبة الصلب، وفي هذا الزحام ومع الأصوات المرتفعة من كل مكان وقف خبيب رابط الجأش يقول: إن شئتم أن تتركوني أركع ركعتين قبل مصرعي فافعلوا. وأجيب طلبه فصلى ركعتين وهو خاشع هادئ ثم التفت إلى زعماء القوم قائلاً: والله لولا أن تظنوا أني أطلت الصلاة جزعاً من الموت لاستكثرت من الصلاة.

أوثق خبيب بالخشبة وبدأ الجلادون يمثلون به حياً فيقطعون من جسده القطعة تلو القطعة وهم يقولون له: أتحب أن يكون محمد مكانك وأنت ناج؟ فيقول والدم ينزف منه: والله ما أحب أن أكون آمناً وادعاً في أهلي وولدي وأن محمداً يوخز بشوكة. فيلوح الناس بأيديهم في الفضاء ويتعالى صياحهم: اقتلوه اقتلوه..

ورفع خبيب بصره إلى السماء وهو يقول: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً. ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وبه ما لم يُستطع إحصاؤه من ضربات السيوف وطعنات الرماح.

بتصرف عن كتاب: صور من حياة الصحابة
للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

"والله ما أحب أن أكون آمناً وادعاً في أهلي وولدي وأن محمداً يوخز بشوكة" هل هناك أعظم من هذا الإباء وأعمق من هذا الحب؟.

خبيب هذا ليس الوحيد في الثبات على المبدأ، فقبله عُذّب بلال بوضع الرحى على صدره الساعات الطويلة وهو ممدد في الشمس المحرقة دون أن يلين أو يستكين وهو يردد: أحد أحد.. وكل أصحاب النبي ﷺ الأولين تعرضوا لمحن شديدة، فحوربوا وحوصروا وقطع عنهم الغذاء، ومع أن عددهم لم يكن يتجاوز العشرات فقد ثبتوا على عقيدتهم بين الآلاف المؤلفة من المشركين.

وعُرض بعض العلماء في عصور مختلفة بعد ذلك للإهانة والقتل ولم يتراجعوا عن عقيدتهم، فهذا محمد بن نصر وعمره ثمانون عاماً يضرب الخليفة الواثق بالله عنقه بسيفه في فتنة خلق القرآن؛ لأنه يأبى أن يقول بما قال الخليفة وحاشيته..

وهذا إمام المسلمين أحمد بن حنبل وعمره يقارب السبعين، يأمر المعتصم بالله بجلده فيضرب بالسياط حتى يتمزق جلده ولحمه ويشرف على الموت، ويطلب إليه ليرفع عنه العذاب أن يقول كلمتين فحسب، فيأبى إلا أن يقول وهو في أشد الألم: القرآن كلام الله..

كثيرون جداً غير هؤلاء من الذين آمنوا بالله ورسوله وبالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله الحقة وطلبوا الشهادة ونالوها عن رضا وطيب نفس، وساروا إلى الموت وكأنما يسيرون إلى حفلة عرس.

هؤلاء هم الذين ساهموا في الإبقاء على الدين سليماً معافى، وجادوا بأنفسهم في سبيل الله، والجود بالنفس أعلى غاية الجود، ونالوا بذلك أعظم شرف وخلدهم التاريخ بما عرف من فضلهم وتضحيتهم.

حكمت المحكمة

في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فتح القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي مدينة سمرقند في آسية الوسطى عنوةً، دون أن يُخيَّر أهلها سلفاً بين الإسلام أو الجزية أو الحرب كما هي العادة عند المسلمين، وخشي أهل المدينة الفاتح واستكانوا له إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز وسمع أهل سمرقند بعدله وتقاه وورعه، فأرسلوا إليه وفداً منهم عرض عليه أمرهم، وبعد أن استمع إلى شكواهم أرسل معهم كتاباً إلى عامله على المدينة سليمان بن أبي السُّرِّي طلب إليه فيه تنصيب قاض ينظر في ظلامتهم، فأحال الأمر إلى قاضي سمرقند حينذاك جُميع بن حاضر النَّاجي، استمع القاضي إلى الشكوى واستدعى شهوداً كانوا حين الفتح وشهوداً من الجيش الذي دخل المدينة. وبعد سماع جميع الشهود ثبتت له صحة ادعاء أهل سمرقند، فأصدر حكمه الذي أمر بخروج الجيش الإسلامي من المدينة، وخروج جميع المسلمين الذين استوطنوا المدينة بعد فتحها.

أخبر والي سمرقند الخليفة عمر بن عبد العزيز بحكم القاضي واستشاره في الأمر، فأتاه الجواب صريحاً واضحاً بتنفيذ حكم القاضي دون إبطاء.

بدأ الجيش الإسلامي بالتأهب لمغادرة المدينة وبدأ المسلمون فيها بتصفية أعمالهم لمغادرتها كذلك، ولم يتوقع أحد ما حدث في أثناء ذلك فقد تشاور سكان سمرقند الأصليون في

الأمر، ورأوا أن حالهم بعد الفتح الإسلامي كانت أفضل من حالهم قبله، كما وجدوا في هؤلاء الفاتحين ما يكفل لهم حقوقهم كاملة غير منقوصة ما دام عدلهم يصل إلى هذا الحد من النزاهة، فأرسلوا وفداً منهم إلى الوالي يطلبون منه إبقاء الجيش الفاتح حامياً لهم، وإبقاء المسلمين إخواناً لهم، وليس هذا فحسب بل إن كثيراً منهم دخل الإسلام عن رضا وقناعة، ثم شاع الإسلام في المدينة كلها حتى غدت مركزاً له شأنه وخرج منه علماء وفقهاء اشتهروا في كل الأمصار.

هذه القصة مذكورة في أكثر من كتاب من كتب التاريخ

لنا أن نسأل الآن: ماذا لو أن وفداً من سكان العراق مثلاً اشتكى إلى رئيس الولايات المتحدة دخول جيشه إلى العراق بسبب كاذب ودعوى ملفقة ثبت بطلانها، أو أن وفداً من أفغانستان اشتكى إلى سيادة الرئيس نفسه اعتداء جيوشه على بلادهم بحجة واهية أو دون حجة أبداً، أو أن السعودية أو هاييتي أو اليمن أو أوكرانية أو غواتيمالا أو غيرها من البلدان في شرق الكرة الأرضية وغربها قد اشتكوا إلى سيادته بالذات تدخل حكومته في شؤونهم الداخلية مما تأباه أبسط قواعد العلاقات الدولية وأبسط مبادئ الأخلاق الإنسانية، ماذا عسى سيادة هذا الرئيس المبجل أن يفعل؟؟ أينصب قاضياً للنظر في شكاوى كل هؤلاء أم يأمر جيوشه بالزحف على هذه البلاد لتأديب أهلها وتعليمهم أبسط قواعد الحرية والديمقراطية؟!.

القاضي في قصة سمرقند كان مسلماً حقاً، فقد حكم بما يقضي به العدل مع أن المدعى عليهم كانوا من أبناء دينه، فلم تأخذه عصبية الدين ولا أثرت فيه القربى والنسب؛ لأن الإسلام ينهى عن الظلم ويأمر بإعطاء كل ذي حق حقه، بغض النظر عن كل شيء.

والخليفة في هذه القصة كان مسلماً حقاً؛ لأن الخليفة مسؤول عن رعيته وعليه أن يكفل حقوقهم مهما كانت عقيدتهم وديانتهم، ما داموا في دولة الإسلام وتحت لواء هذه الدولة وحمايتها ما لم يسيئوا إليها.

وجنود الجيش الإسلامي قادة وأفراداً كانوا كلهم مسلمين حقاً، فقد انصاعوا لحكم القضاء العادل ولم يفكروا في التمرد؛ لأن دينهم يأمرهم بطاعة أولي الأمر ما دام أولو الأمر على حق، ومن واجبهم أن ينفذوا أوامرهم دون تردد.

هؤلاء جميعاً أنار الإسلام عقولهم وصقل طباعهم وهذب نفوسهم وشذب أخلاقهم فأصبحوا من صفوة البشر قدوة يقتدى بهديها ومثلاً يحتذى به إلى أبد الآبدين، وحُق لهم أن يشار إليهم ويقال: هؤلاء هم المسلمون..

ثمن الكلمة

في عام ١٩٠٢ حاول اليهودي الماسوني المدعو (مزراحي أفندي قره صو) وهو يدير أحد المصارف ومعه اثنان من زعماء اليهود مقابلة السلطان عبد الحميد، ولما لم يكن ذلك ممكناً حسب أصول التشريفات المتبعة في القصر السلطاني فقد استقبلهم مدير التشريفات (تحسين باشا) الذي وعدهم بالاستماع إلى مطالبهم ونقلها حرفياً للسلطان، وأذعن هؤلاء للأمر وذكروا لمدير التشريفات أن اليهود مستعدون لـ:

١- وفاء جميع الديون المستحقة على الدولة العثمانية.

٢- بناء أسطول لحماية الإمبراطورية العثمانية.

٣- تقديم قرض بمبلغ خمسة وثلاثين مليون ليرة ذهبية دون فائدة لإنعاش مالية الدولة واستثمار مواردها.

وذلك مقابل:

١) إباحة دخول اليهود إلى فلسطين في أي يوم من أيام السنة للزيارة.

٢) السماح لليهود بإنشاء مستعمرة قرب القدس لينزل فيها اليهود أثناء وجودهم للزيارة.

نقل تحسين باشا هذا للسلطان عبد الحميد الذي كان جوابه: تحسين قل لهؤلاء اليهود الوقحين ما يلي:

١- إن ديون الدولة ليست عاراً عليها؛ لأن غيرها من الدول مثل فرنسة مدينة، وذلك لا يضيرها.

٢- إن بيت المقدس الشريف قد افتتحه للإسلام أول مرة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، ولست مستعداً لأن أتحمل في التاريخ وصمة بيعه لليهود وخيانة الأمانة التي كلفني المسلمون بحمايتها.

٣- ليحتفظ اليهود بأموالهم، فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمي وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام.

وأخيراً مُرهم فليخرج هؤلاء من عندي ولا يحاولوا مقابلتي أو الدخول إلى هذا المكان أبداً.

وأوفد اليهود مندوبهم الماسوني (قره صو) مرة أخرى وطلب مقابلة السلطان عبد الحميد بواسطة أحد رجال البلاط (كمال بك)، وجرت المقابلة بحضور أحد مرافقي السلطان (عارف بك)، فقال قره صو للسلطان: إنني قادم مندوباً عن الجمعية الماسونية لتكليف جلالتكم بأن تقبلوا خمسة ملايين ليرة ذهبية لخزينتكم الخاصة، ومئة مليون تقرض لخزينة الدولة - وهي بأمس الحاجة إلى القرش - بلا فائدة لمدة مئة سنة على أن تسمحوا لنا ببعض الامتيازات في فلسطين.

فقال السلطان لمرافقه: هل كنت تعرف ماذا يريد هذا الخنزير؟! فارتمى المرافق على قدمي السلطان مقسماً بعدم علمه، فالتفت السلطان إلى قره صو وقال: اخرج من وجهي يا سافل. فخرج رأساً إلى باخرة كانت متجهة إلى إيطالية، ومن هناك - ولأنه عميل للمحافل الماسونية الإيطالية - أرسل إلى السلطان البرقية التالية:

"أنت رفضت عرضاً وسيكلفك هذا الرفض نفسك ويكلف مملكتك كثيراً"..

عن كتاب: السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجحود

تأليف محمد مصطفى الهلالي. نشر دار الفكر

كانت البلاد الإسلامية في أواخر زمن العباسيين مشتتة منقسمة إلى دويلات وإمارات، وكان الخليفة العباسي لا يمتد حكمه لأكثر من رقعة بسيطة على الأرض، ويكتفي بالدعاء له في المساجد في كثير من الأمصار

الإسلامية التي كانت تخضع اسماً للخلافة العباسية وتتمتع فعلاً بحكم ذاتي كبير. وانقسمت البلاد الإسلامية بعد ذلك وأصبحت دولاً متفرقة تعاقبت على كل منها حكومات مختلفة، وتعرض بعضها لأحداث جسيمة أهمها الحروب الصليبية، واستمر الأمر كذلك أكثر من خمس مئة سنة إلى أن ظهر العثمانيون - وهم من أصل تركي طوراني - الذين استطاعوا إنشاء دولة جديدة، انتشرت في معظم أراضي الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف ووحّدتها، وأضافت إليها قسماً من جنوب شرقي أوربة، وحكمت باسم الإسلام، وكان رئيس هذه الدولة يدعى خليفة المسلمين مثل كل خلفاء الأمويين والعباسيين من قبل، ولم يكن هذا مستهجناً ولا مستغرباً من رعايا هذه الإمبراطورية الواسعة؛ لأن الإسلام لا يفرق بين القوميات، ولأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولأن الخلفاء كانوا يطبقون الشريعة الإسلامية في كل الأحكام ولا يشذون عنها في القوانين التي تحكم بموجبها البلاد، ولم يكن العرب حتى في مكة المكرمة والمدينة المنورة يشعرون بغضاضة في هذا طوال حكم العثمانيين الذي استمر أكثر من أربع مئة سنة، ما دام هذا الحكم إسلامياً وشرعياً، وعاصرت هذه الإمبراطورية في أواخر عهدها إمبراطوريات كبيرة مثل فرنسة وإنكلترة وروسية وبروسية، وكانت كلها تحسب حسابها وتخشى بأسها، وتطمع في الوقت نفسه بالاستيلاء على أراضيها لموقعها الجغرافي المميز وثرواتها الطائلة.

وكان اليهود من أحقر الطامعين في أراضي الخلافة الإسلامية وأكثرهم لؤماً، فقد بدؤوا بجمع شملهم منذ أواخر القرن التاسع عشر والاتصال بكل دولة من الدول العظمى آنذاك، لمساعدتهم في الحصول على أرض يجعلونها وطناً لهم، وقصص ذلك كثيرة مشهورة وتحركاتهم ومؤامراتهم الدنيئة بالرشوة والضغط والخداع والكذب والنفاق معروفة

ومذكورة في كثير من المصادر التاريخية، واستقر رأيهم أخيراً على أن تكون فلسطين العربية المسلمة وطناً قومياً لهم، زاعمين زوراً وبهتاناً أنها أرضهم التي أجبروا على النزوح عنها وأن من حقهم العودة إليها. وكان من جملة محاولاتهم المحاولة التي تمت باجتماع اليهودي الصهيوني الماسوني قره صو بالسلطان عبد الحميد، وما آل إليه هذا الاجتماع والتهديد الذي أرسله هذا الحقير إلى السلطان بعد طرده من قصره.

ولم يكف اليهود عن مساعيهم وحاول هرتزل الزعيم الصهيوني وغيره من بعد مزراحي التأثير في السلطان عبد الحميد، ولكن دون جدوى، وعندها لم يجد اليهود بداً من تنفيذ وعيدهم على يد صنائعهم (الدونمة)، وهم اليهود الذين تظاهروا بالإسلام، وكان ما هو معروف من خلع السلطان عبد الحميد وإجباره على الإقامة في قصر منعزل حتى وافته المنية، وأكملوا مكرهم بمساعدة الدول الطامعة في الأراضي العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، فاقتسموها وسلطوا على ما بقي منها صنائعهم الذين ألغوا الخلافة، كما كانوا حصلوا من وزير الخارجية البريطاني اليهودي المدعو (بلفور) على وعد بإنشاء الوطن الصهيوني، وأكملت المؤامرة تدريجياً وبخطوات مدروسة بدسائس اليهود وغفلة العرب والمسلمين إلى أن وصل الحال إلى ما وصل إليه الآن، مما هو معروف نعيشه كل يوم بالأسى والحزن والدمع والدم.

ولم يكتف اليهود بكل هذا، بل حاولوا تشويه سمعة السلطان عبد الحميد - شوه الله وجوههم -، فاتهموه بأبشع التهم ولقبوه بالسلطان الأحمر، وأشاعوا أنه كان ظالماً مستبداً يقتل أعداءه بالعشرات بإغراقهم في البحر أو بإعدامهم شنقاً وقتلاً.. وهذا مع الأسف ما درسناه في كتب التاريخ التي كانت تدرس في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي في مدارس البلاد العربية وصدقناه وآمنا به، إلى أن ظهر زيف هذه

الادعاءات وتبين أنها كلها من دعايات اليهود ومكرهم، وأن السلطان عبد الحميد كان تقياً ورعاً مصلحاً، ولكن وجوده في آخر عهد المملكة العثمانية الهرمة لم يسمح له بتطبيق كل برامجه، ومن جملتها - كما يؤكد المقربون إليه - أنه كان ينوي نقل عاصمة ملكه إلى دمشق، كما كان ينوي جعل اللغة العربية اللغة الرسمية للبلاد، ومما يدل على نظافته ونزاهته أنه رفض حين خلعه عن العرش اللجوء إلى الدول العظمى التي عرضت عليه ذلك، وأصر على أن يعيش في آخر أيامه في أرض مسلمة ويموت ويدفن في أرض مسلمة.

لقد كانت كلمة (لا) التي قالها السلطان عبد الحميد لليهودي الحقير مزراحي أغلى كلمة ثمناً في التاريخ؛ لأنها كلفته عرشه ومملكته وسمعته وكادت تودي بحياته، ولكنها خلدت اسمه مسلماً حقيقياً وكفاه بهذا شرفاً وتكريماً.

الفضل ما شهدت به الأعداء

عبد الله الحلبي (وهو ابن الشيخ سعيد الحلبي خطيب الجامع الأموي والمدرس فيه في منتصف القرن الثامن عشر) تاجر ثري كان يتجر بالحرير. روى عنه (باتون) الذي زار دمشق عام ١٨٤٠م النادرة التالية: تعاقد السيد عبد الله مع بعض الفلاحين على تسليمهم حريراً بسعر ١٤٠ قرشاً، ولكن السعر ارتفع بين عقد الصفقة والتسليم إلى ١٦٠ قرشاً، فأعطى عبد الله الفلاحين ١٤٥ قرشاً أي بزيادة خمسة قروش عن السعر المتعاقد عليه، فطلب إليه والده - الذي كان يقف إلى جانبه - أن يدفع لهم الثمن الرائج، لكنه انتحى بهم جانباً وأعطاهم ١٥٠ قرشاً، وعندما علم والده بذلك هوى بعصاه على نقرته مرتين مستخدماً في ذلك سلطته الأبوية المقدسة بطريقة نادراً ما بوسعنا نحن الأوروبيين فهمها، وأمره بدفع ١٦٠ قرشاً بالتمام. وعلى أي حال فإن عبد الله لا يعد خاسراً بفعل والده إذ إنه يضع علامته التجارية على الأقمشة التي يصدرها والتي تباع فور وصولها، ذلك أن مصدرها ابن رجل على هذا القدر من العلم والورع.
انتهى كلام باتون.

عن كتاب: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
تأليف السيدة ليندا شيلر
وترجمة السيد عمرو الملاح والسيدة دنيا الملاح

تقرب من هذه القصة قصة جرت في مطلع القرن العشرين في دمشق أيضاً بين تاجرين نسيت اسميهما، وهما من التجار المعروفين آنذاك، وملخصها أنهما كانا يتفاوضان من أجل سلعة طلب البائع منهما ثمناً لها ووضع الشاري ثمناً أقل، وبينما هما يتفاوضان أذن لصلاة العصر فانصرفا للصلاة على أن يعودا بعدها للاجتماع، وفي الطريق فكر البائع أن الثمن الذي وضعه الشاري مقبول ونوى أن يوافق عليه إذا عاد الشاري إليه، وفي الوقت نفسه وجد الشاري أن السعر الذي وضعه البائع مقبول ونوى أن يوافق عليه إذا أصر البائع.

ولما عادا للاجتماع بعد الصلاة بدأ الشاري بالكلام موافقاً على السعر الذي وضعه البائع، وكانت المفاجأة أن البائع قال له: بل بعتك بالسعر الذي وضعته أنت فقد وجدت أنه مجزٍ ونويت أن أقبله.

في قصة عبد الله الحلبي نجد حرص المسلم على حفظ حق الناس ولو على حسابه الخاص؛ وهذه قمة الأخلاق التي لا يصل إليها إلا من أوتي من قوة الإيمان القدر الكبير؛ لأنه يعتقد أن المال الذي يكسبه الإنسان يجب أن يكون حلالاً خالصاً من كل شائبة، ويعتقد أن الرزق من عند الله لا ينقص منه شيء ولا يزيد عليه شيء، وأن ما هو مكتوب له لن يأخذه غيره وما هو مكتوب لغيره لن يصل إليه.

ومن قصة التاجرين نتعلم كيف يكون الإنسان صادقاً مع نفسه لا يختلف ظاهر كلامه عن باطن تفكيره، وانسجام الباطن مع الظاهر وتطبيق النية على العمل هو الذي يدل على سلامة الطوية وصدق العقيدة بعيداً عن التكلف والنفاق والرياء..

أين هذا التعامل التجاري مما نراه الآن؟ هل يحتاج الأمر إلى تعليق؟.

الزهد في المنصب

يقدم لنا الدكتور شوقي أبو خليل في أحد كتبه نموذجاً آخر لشخصية معاصرة، إنه الشيخ العلامة محسن بن عبد الكريم بن علي بن محمد الأمين الحسيني العاملي الدمشقي:

قال له الجنرال غورو[1] - وهو الذي كان يقصد أن يفرق بين الشيعة والسنة -: أنتم الشيعة في سورية مظلومون، حقوقكم مهضومة مغبون شأنكم، فالمفتي العام للبلاد الشيخ عطا الكسم من أهل السنة وليس لكم مفتٍ خاص بكم، إني أقترح باسم الحكومة الفرنسية أن تكون سماحتك المفتي الأكبر للمسلمين في سورية إن شئت، أو مفتي الشيعة على الأقل أو من ترتئيه من تلاميذك، فيكون للمسلمين مفتيان واحد للسنة وآخر للشيعة..

فأجابه: أيها الجنرال إن مثل هذا الكلام يخاطب به غيري، تزعزع به عقيدته بدينه وتشتريه أنت وأمثالك به لتوقعوا العداوة والبغضاء وتثيروا التفرقة في صفوف المسلمين، وهم أمة واحدة فتعيدوها جاهلية جهلاء، اسمع وبلغ من وراءك، نحن المسلمون أمة واحدة، إلهنا واحد ونبينا واحد وكتابنا واحد وكعبتنا واحدة ليس عندنا فرق، إنما هي ألفاظ جوفاء، اخترعها أعداء الإسلام أمثالكم في غفلة من الأمة ليكيدوا للمسلمين وخسئوا، إن مفتي

---

(١) الجنرال غورو هو القائد الفرنسي الذي دخل دمشق عام ١٩٢٠م إثر موقعة ميسلون.

المسلمين جميعاً أخي العلامة الشيخ عطا الكسم وهو مفتينا وإمامنا، فأرغب إليك أن تكف عن هذا وتوفر القول فيه ولا تعد إليه معي ولا مع غيري، وإلا فإننا يد واحدة عليكم.

محاضرة للدكتور محمد بن عزوز
عن كتاب: علماء مكرمون
نشر دار الفكر

محاولة التفريق بين المسلمين يصدق فيها المثل (شنشنة أعرفها من أخزم)، وهي خطة قديمة مازال المستعمرون وأذنابهم يلجؤون إليها كلما أعيتهم الحيل وضاقت بهم السبل واستعصت المسالك، وفي الحقبة الأخيرة نراهم يسعون لتحقيقها بكل قوتهم وبكل ما لديهم من لؤم وسفالة، مستغلين ضعاف النفوس من حثالة الناس وإغراقهم بالمال ووعدهم بالمناصب - وما يعدهم الشيطان إلا غروراً -، وبكل وسائل الإغراء ما هو معروف منها وما يُبتكر ويُبتدع، بشكل مستمر أو بطرق علنية ومفضوحة بلا حياء ولا خجل.

وهذا الرجل العظيم العلامة محسن الأمين لم يكن له ليتصرّف إلا كما تصرّف، وهو إذ رفض منصباً دينياً كبيراً في سبيل توحيد الكلمة أعطى المثل الصالح للمسلم الحق، ولما يجب أن يكون عليه كل مواطن يسعى المستعمر لاستمالته في سبيل تفريق الكلمة وتشتيت الشمل وخلق العداوات بين الناس.

أين هذا مما نراه الآن من الذين يتعاونون مع المستعمرين في العراق وأفغانستان وفلسطين ولبنان وغيرها من البلدان يذهب المستعمرون ويذهبون معهم، يُستغلون بوعود كاذبة وإغراءات كثيرة، وبعد أن يحقق المستعمر مآربه بواسطتهم يستغني عنهم بشتى الطرق أو يصفيهم بعد فضح عوراتهم، إن لم تُصفّهم شعوبهم وتُلصق بهم اللعنة والعار إلى الأبد.

ألا يجب أن يدفن هؤلاء أنفسهم في التراب أو يُطردوا طرد الكلاب؟.

أبو حمزة وأبو فراس

أبو حمزة وأبو فراس شريكان في معمل صغير للأثاث الخشبي أعاملهما منذ نحو عشرين سنة، وألجأ إليهما في صنع بعض ما أحتاج إليه من أثاث جديد أو إصلاح ما عندي من أثاث قديم. وما عرفت عنهما طوال مدة تعاملي معهما إلا الصدق في الوعد والإتقان في العمل واللطف في القول، وهما يتمتعان لذلك بسمعة جيدة بين المعارف والجيران.

منذ سنتين مرضت زوجة أبي حمزة، ومع كل ما قدم لها من عناية وبذل من رعاية فقد وافتها المنية فاحتسبها عند ربه صابراً على فراقها، مع احتياجه الشديد إلى من يعنى به فهو مصاب بآلام ظهرية وآلام في الطرفين السفليين تلزمه الفراش في كثير من الأحيان.

منذ أكثر من سنة قضيت معظم شهر رمضان المبارك في الديار المقدسة معتمراً، وحين عدت التقيت أبا حمزة أمام دكانه فوجدت على وجهه أمارات الحزن والأسى، وما عتم أن بادرني قائلاً: أعلمت ما جرى في غيابك؟ قلت: ماذا؟ قال: توفي أبو فراس، أصابته نوبة قلبية وهو في الطريق إلى عمله، نقلته فوراً إلى المستشفى ولكنه ما لبث أن فارق الحياة.

ترك أبو فراس زوجة وثلاث بنات ليس لهن من يعولهن، والقصة تبدأ من هنا فإن أبا حمزة زار أم فراس بعد موت زوجها مواسياً ثم قال لها إنه سيستمر في قسم دخل معملهما وسيقدم لها

حصة زوجها من دخل المعمل كما لو أنه ما زال حياً، وهذا ما تم فعلاً، فما زال أبو حمزة يعطي زوجة شريكه أم فراس حصته من المعمل كما لو أنه ما زال حياً، وأضاف إلى ذلك مشاركته في نفقات خطبة إحدى بناته وزواجها من ماله الخاص.

لم يفكر أبو حمزة في الزواج من أم فراس بدل زوجته المتوفاة، بل صان كرامتها وحفظ بيتها فكان بذلك مثال الشهامة والرجولة. والقصة لم تنته بعد، فقد كلَّفتُ أبا حمزة بعمل خزانة صغيرة وزرتُهُ في دكانه لمراقبة صنعها فلاحظت في المحل حركة لم أعهدها من قبل؛ لقد كانت طلبات العمل لديه كثيرة وهو يعمل بجد مع صانع له ساعاتٍ إضافية لينهي ما لديه من طلبات، لقد كرم الله أبا حمزة فزاد في رزقه وأفاض عليه من فضله، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

أبو حمزة هذا مثل للمسلم الحق وقدوة يحق أن يحتذى بها.

الساعة الضائعة

أسرد فيما يلي قصة حدثت لي شخصياً.

أعطتني زوجتي يوماً ساعتها لإصلاحها، وذهبت إلى عملي في العيادة ووضعت الساعة في مكان لا أذكره، واتفق أن ذهبت وزوجتي وأولادي في اليوم التالي - وكان يوم جمعة - إلى بصرى الشام لزيارة معالمها، وقضينا نهارنا هناك وعدنا مساءً. وفي يوم السبت افتقدت الساعة - التي كانت ثمينة هي وسوارها - فلم أجدها، وفتشت في العيادة وفي الدار وفي كل مكان يمكن أن تكون فيه ولكن دون جدوى، وخطر لي أنها ربما سقطت مني في بصرى. واشتريت لزوجتي ساعة عوضاً عنها ونسينا الموضوع.

وبعد خمس عشرة سنة دخلت علي في العيادة سيدتان محجبتان حجاباً كاملاً مع نقاب لا يمكن معه معرفتهما وتكلمت إحداهما قائلة: هذه أمي كانت غير محجبة وهداها الله فتحجبت منذ مدة والتزمت بكل ما يأمر به الإسلام، وهي تنوي الذهاب إلى الحج بعد بضعة أيام، ولكنها لا تستطيع زيارة الكعبة المشرفة ولا قبر الرسول الكريم ﷺ إلا إذا كانت قانعة من طهرها وعفتها، وقد جاءت إليك اليوم ترد لك ساعة كانت سرقتها من عيادتك حين جاءتك مريضة تطلب العلاج، نادمة على ما فعلت وطالبة منك العفو والسماح عسى الله أن يغفر لها ذنبها، وأخرجت الساعة من جيبها وقدمتها لي وهي تجهش بالبكاء.

كان هذا الموقف مفاجأة لم أتوقعها ولم أكن مهيئاً للرد عليها، وبعد لحظة صمت قلت لها: بارك الله لك بتوبتك وتقبل منك طاعتك، وهذه الساعة لك خذيها الآن بالحلال تقدمة مني بمناسبة هدايتك وحجك.

مضى على هذه الحادثة الآن قرابة عشرين سنة، وكلما تذكرتها عجبت لهذا الدين العظيم الذي يطهر النفوس ويسمو بها إلى أعلى مراتب الأخلاق والفضيلة بدافع ذاتي، لا عنف ولا إكراه ولا حسيب ولا رقيب إلا رقابة الضمير.

هل هناك نظام بشري أو قانون وضعي أو تعليمات حكومية أو أوامر ونواهٍ رسمية كان باستطاعتها ردع هذه السيدة وإشعارها بالذنب ووجوب إرجاع الحق إلى صاحبه، هل هناك قوة في العالم تفعل مثل هذا الفعل السحري العجيب؟.

ما كان لأحد أن يعرف سر هذه السيدة الذي كان سيدفن معها حين وفاتها لو لم تعترف به، فما الذي أجبرها على البوح بسرها؟. إنه خوفها ممن يعرف ما يسر الناس وما يعلنون، ممن يعلم الجهر وما يخفى، إنه خوفها من حساب يوم عظيم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وهذه السيدة برهنت بعملها هذا على أنها فهمت الدين فهماً صحيحاً، وأن باطن الإنسان يجب أن يكون نقياً كظاهره ليكون مسلماً حقيقياً، فكانت هي هذه المسلمة.

آثرت ديني على دنياي

أقام يهودي في حيفا على السلطان عبد الحميد دعوى يدعي فيها أن السلطان اغتصب منه أرضاً وضمها إلى أملاك الدولة.

أحيلت الدعوى إلى عدة قضاة امتنعوا جميعاً عن النظر في الدعوى أو امتنعوا عن إصدار الحكم حين تبين لهم صدق اليهودي خشية من السلطان، إلى أن استلم القضاء القاضي أبو النصر الخطيب، درس هذا القاضي الدعوى وما لدى اليهودي من بيّنات تثبت دعواه فوجده محقاً فيما يدعي، وعندها طلب إلى كاتبه تسطير الحكم القاضي برد الأرض إلى صاحبها.

نظر الكاتب إلى القاضي نظرة مستغرب وخوف فمن ذا الذي يقضي على السلطان؟ وما لبث أن ألقى بالقلم جانباً وهو يقول: اعفني يا سيدي من هذه المهمة، وإن شئت أن تكتب فاكتب أنت ما تريد.

أخذ القاضي القلم وكتب: آثرت ديني على دنياي، وحكمت على أمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين السلطان الغازي عبد الحميد خان بن السلطان الغازي عبد المجيد خان بإعادة الأرض المغتصبة من حق فلان اليهودي بإرادته السنية المؤرخة في كذا... شاع الخبر في حيفا وذهل الناس وقالوا إن هذا القاضي هالك لا محالة.

وصل الحكم إلى السلطان فقرأه واطلع على موجباته فأثر في نفسه إخلاص هذا القاضي وجرأته فكتب إليه: الحمد لله الذي

أوجد في رعيتي من إذا ضللت عن الحق ردني وهداني، وأمر بترقية القاضي مع مكافأة قيمة.

بتصرف عن كتاب:
من نسمات الخلود
تأليف الشيخ محمد صالح فرفور

القاضي أبو النصر الخطيب آثر دينه على دنياه وحكم بالعدل كما يأمر الإسلام، وأعطى الحق لصاحبه ولو أنه يهودي، فما قول السيئ الذكر شارون فيما يصنعه اليهود اليوم من الاستيلاء على أراضي العرب وأملاكهم وأموالهم بكل صفاقة، ربما كان المقصرون هم العرب الذين لم يرفع أحدهم دعوى على شارون لاسترداد أرضه، وهو لو فعل فإن القضاء اليهودي النزيه جداً والنظيف جداً سيحكم له حتماً!!

وما رأي حامي شارون النتن الذكر بوش رائد الديمقراطية في الأرض وموزع العدالة في العالم؟ أظن أنه لم يسمع بما يصنع اليهود في فلسطين وأظن أنه لو سمع لاستاء جداً جداً دون شك!! سيؤثر مبادئه العظيمة على دنياه وينصف المظلومين في كل بقاع العالم، أم أن كل ما ينادي به من مبادئ دجل ونفاق؟ هل نسمع الجواب من هذين البطلين العظيمين أو ممن يسير في ركابهما، أم لا حياة ولا أخلاق لمن تنادي؟؟.

ملاحظة: زال بوش مكرماً في آخر أيامه بصفعة حذاء، وما ندري ما أخبار شارون؟ وما يقال فيهما ينطبق على خليفتيهما لأن العصا من هذه العصية هل تلد الحية إلا الحية؟.

لا تتجاوز

في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي حدث في سورية أول انقلاب عسكري بقيادة حسني الزعيم، وتسلم الحكم عسكريون نشروا الرعب في قلوب الناس، منهم قائد شرطة موقع دمشق إبراهيم الحسيني الذي اشتهر بقسوته وبطشه.

وعرضت لأحد أقارب الحسيني مشكلة وصلت القضاء، وأحيلت إلى القاضي بدر الدين الكاتب المشهور باستقامته ونزاهته وعلمه، وقبل النظر في القضية توجه الحسيني بنفسه إلى مكتب القاضي طالباً منه مساعدة قريبه.

استمع القاضي إلى كلام الحسيني حتى النهاية، وحين ذلك قرع الجرس وطلب كاتب المحكمة، وكانت المفاجأة أن توجه القاضي إلى الكاتب قائلاً: افتح محضراً لأخذ أقوال هذا السيد الذي جاء يتدخل في القضاء وسجل ما يقول!.

ذهل الحسيني ولم يحر جواباً وخرج فوراً من غرفة القاضي ململماً ما بقي له من كرامة!.

روى هذه القصة الأستاذ المحامي هايل اليوسفي في برنامجه الإذاعي دون ذكر أسماء أبطالها، ودفعني الفضول إلى الاتصال بالأستاذ اليوسفي طالباً إليه معرفة الأسماء لأضيف هذه القصة إلى مجموعتي، فتفضل وذكرها لي مشكوراً.

هذا القاضي الشريف لم يخش بطش ما يحمله زائره من نجوم وسيوف على كتفيه، ولا خشي ما يمكن أن يصنع به هذا الزائر رداً على فعله، وإنما تصرف بما يمليه عليه الواجب مهما كانت النتائج، لقد كان هذا التصرف واضحاً، وكأنه أمر موجه إلى رجل ذي سلطان (لا تتجاوز سلطتك التي خولها لك القانون فقف عند حدك).

والحسيني لم يستطع فعل شيء لأن القضاء كان مستقلاً محترماً مصوناً من كل تدخل، الأمر الذي كان يدخل الطمأنينة في نفوس الناس الذين يعرفون أن صاحب الحق لا يضيع حقه، وأن المبطل خاسر دون شك مهما كان وراءه من قوة.

الصديق الصدوق والجار المجير

في مطلع عام ١٩٧٨م أصبت بألم شديد في الطرف السفلي الأيمن أقعدني عن العمل وألزمني الفراش شهراً كاملاً، غبت في آخره عن الوعي تقريباً لكثرة ما كنت أُعطى من أدوية مسكنة ومخدرة، وأُشير عليّ بعد ذلك بمتابعة العلاج في لندن لإجراء مداخلة جراحية لانقراص في الفقرات؛ لأن هذه العملية كانت قليلة الانتشار في بلدنا وكانت غير مضمونة النتائج.

واستطاع الزميل الدكتور شمس الدين الجندي الحصول على موعد سريع من أستاذه في لندن لاستقبالي، وكان مشهوراً بإجراء هذه المداخلات، وتكرم الصديق الدكتور شاكر الفحام - رحمه الله - الذي كان وقتئذ وزيراً للتربية بمساعيه الخاصة وبمساعدة وزير الدفاع العماد مصطفى طلاس بتوفير جواز سفر لي ولزوجتي ولابني الذي كان طالباً في كلية الطب، وفي سن الخدمة العسكرية ولا يمكن منحه جواز سفر.

كان كل شيء جاهزاً خلال ثلاثة أيام، وسافرت مع زوجتي وابني إلى لندن حيث استقبلنا في المطار الأستاذ محمد خضر الموظف في السفارة السورية في إنكلترة ـ وعلمت أنه أصبح منذ مدة سفيراً هناك ـ بتكليف

من السفير السوري الأستاذ عدنان عمران، وذلك بتوصية هاتفية من الدكتور شاكر الفحام سبقتنا إلى لندن.

انتقلت من المطار إلى المستشفى حيث بقيت نحواً من ثلاثة أسابيع قيد المعالجة دون إجراء مداخلة جراحية تماثلت بعدها للشفاء، وعدت إلى دمشق، ولم ينقطع الأستاذ خضر عن زيارتي هناك يومياً تقريباً كما زارني السيد السفير مرتين مطمئناً ومواسياً.

كل ما تقدم لا دخل له في موضوع القصة التي سأرويها، وإنما هو مقدمة لها فحسب، ولو أني أنتهز هذه الفرصة لأسجل شكري وعرفاني بالجميل لكل من ذكرت من أصدقاء لما قدموا لي آنذاك من عون ومساعدة متعهم الله بالصحة والعمر المديد.

أما القصة فقد روتها لي زوجتي بعد أيام من مكوثنا في لندن حين عاد إليّ شيء من وعيي بعد زوال أثر المسكنات وتماثلي للشفاء قالت:

عشية مجيئنا إلى لندن زارنا جارنا السيد محمد قطيفاني وقال: علمنا أن الدكتور سيسافر إلى لندن للاستشفاء وقد تحتاجون إلى شيء من المال، وهذا مبلغ تستعملونه إن احتجتم. وقدم لي مبلغاً من المال، وحين رفضت أخذه أصر وقال: إن الغريب لا يعرف ما يقدّر له وهذا دين تعيدونه حين عودتكم، ونتيجة إصراره أخذت المبلغ وطلبت إليه إعطاءه وصلاً به فرفض بشدة. ومساء اليوم نفسه زارنا صديقك الدكتور صبحي طه وقدم لي كذلك مبلغاً من المال، وكان موقفه كموقف جارنا السيد قطيفاني بإصراره على تقديم المبلغ وإصراره على عدم أخذ وصل به.. وصبيحة يوم السفر زارنا جارنا السيد نزيه الحفار، وقال لي إن له حساباً جارياً في مصرف في لندن، وأعطاني اسم عميل له هناك وعنوانه وقال لي إنه اتصل به هاتفياً وطلب إليه إعطاءنا أي مبلغ نريده إن اتصلنا به.

عمل هؤلاء الثلاثة الذين ذكرتهم الدكتور طه والسيد قطيفاني والسيد حفار ترك في نفسي أثراً لا يمكن أن يمحى، وها قد مر على الحادثة أكثر من ثلاثين عاماً ومازلت أتأثر من أعماقي كلما ذكرتها.

أما الدكتور طه فصديق العمر بدأت معرفتي به منذ بدء الدراسة الإعدادية، واستمرت حتى نهاية الدراسة في كلية الطب وتعمقت صداقتنا خلال ذلك تدريجياً، وزادت بعد تخرجنا للحياة العملية وصلتنا لم تنقطع حتى الآن، وقد عرفته في الحضر وفي السفر في الشدة وفي الرخاء، لم أر منه إلا كل خير وما سمعت عنه إلا كل ما يبهج النفس؛ فهو شديد التواضع طيب النفس مخلص لأصدقائه كل الإخلاص، حريص على مصلحتهم وسمعتهم، ناصح أمين يده ممدودة للخير، أعاد على نفقته الخاصة تشييد جامع في بلده دوما كان شيّده صغيراً من قبل جدُّه فوسعه وزينه، وهو معروف باسم جامع طه. انتخب أكثر من مرة نائباً في المجلس النيابي قبل عهد الوحدة مع مصر وفي عهد الوحدة وبعده، فكان في كل مرة المدافع عن الحق الساعي للإصلاح بصمت وهدوء دون تبجح ولا منّة.

فلا عجب من شخص هذه صفاته أن يمد يد العون لصديق قديم له يوم محنته؛ لأنه مسلم مؤمن والمؤمنون إخوة، عليهم واجب التعاون دون أن يعرف بعضهم بعضاً، فكيف بهم إذا كانوا أصدقاء.

والسيد قطيفاني من تجار دمشق وصناعييها المحترمين، وكذلك السيد حفار (رحمه الله) كان من تجار دمشق وصناعييها المعروفين، تربطني بهما رابطة الجوار ولا شيء سواها فما الذي دعاهما إلى المغامرة بتقديم ما قدّما دون ضمان حتى ولو على الورق؟! الذي دعاهما عقيدتهما الإسلامية التي أمرتهما برعاية حق الجوار ولا شيء سوى ذلك، فالله أوصى بالجار وسيدنا محمد ﷺ يقول: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" أو كما قال.

ما أجمل أن يساعد الناس بعضهم بعضاً، ما أجمل أن يشاطر الإنسان الناس أفراحهم وأن يواسيهم في أحزانهم، ما أجمل أن يُساعَدَ المحتاج ويُلبّى الملهوف ويُواسى المريض، ما أجمل أن يكون الناس أسرة واحدة وجسماً واحداً إذا مرض منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. كان الإنسان إذا سافر أوصى جاره بأسرته فيرعاهم كأحسن ما تكون الرعاية ويبدأ بقضاء حاجاتهم قبل قضاء حاجاته، وكانت السيدات إن احتجن معونة قصدن جاراتهن فلبينها في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار. كان الجيران يتهادون أطباق الطعام ولاسيما في رمضان، ويساعد بعضهم بعضاً في كل المناسبات، فيقدم الجار لجاره داره إن كانت كبيرة ليقيم فيها فرح ابنه أو ابنته إن كانت داره صغيرة لا تتسع للمدعوين. وهكذا كان الجيران رجالاً ونساءً يعيشون كالأهل، أما اليوم فالجار لا يعرف جاره ولا يحاول التعرف إليه، ولو كانا في طابق واحد من بناء كبير وباب أحدهما أمام باب الآخر أو بجواره، وإذا عرفه أعرض عنه كيلا يزعج نفسه بالسلام عليه إلا إذا تلاقيا وجهاً لوجه، ولا يزوره حتى في المناسبات.

يقول المتحذلقون والتقدميون جداً والمتفرنجون: إن الناس كانوا على ما كانوا عليه لحاجة بعضهم إلى بعض، أما الآن فقد انتفت هذه الحاجة لوجود أمكنة لاستعمالها في المناسبات، ومصارف لإقراض الناس ما يحتاجون إليه ودور للعجزة وملاجئ للمسنين ومستوصفات لتقديم المعالجات... إلخ. وكل هذا وغيره يُنظر إليه من الوجهة المادية البحتة التي تسيطر على عقول الناس في هذه الأيام، غير عابئة بالقيم الإنسانية والروحية والأخلاقية التي لا تقول بها إلا الأديان السماوية وفي طليعتها الدين الإسلامي، فأين من يخدم صديقه أو جاره أو حتى الغريب بدافع إنساني ممن يخدمه بدافع مادي؟ كان الناس يقولون في بلدنا: إن الله

أوصى بالجار حتى السابع، ولو طبقنا هذه القاعدة لكان أهل كل مدينة جيراناً بالتسلسل ولكانت الدنيا بألف خير، ومن فضل الله أن في بلدنا من لا يزال متمسكاً بالأخلاق الكريمة والمثل العليا المترفعة عن المادة من أمثال الدكتور طه الذي أكن له كل تقدير ومحبة، والسيد قطيفاني متعه الله بالصحة، والمرحوم حفار رحمه الله ومتع أولاده الأعزاء بالصحة والسعادة والتوفيق.

الجندي المجهول

كان مسلمة بن عبد الملك القائد الأموي يحاصر حصناً، وأعياهم حصاره فاختار فرقة فدائية لاقتحامه، وتقدم رجل من تلك الفرقة تحت وابل من السهام والنار المنطلقة من كل جانب من جيوش العدو، معرضاً نفسه للخطر حتى ثقب ثقباً فدخل في هذا الثقب الجنود وفتح الحصن وكان النصر. واختفى ذلك الرجل وسأل عنه مسلمة فلم يعرفه أحد فجمع الجند ثم قال: أين صاحب الثقب؟ استحلفه بالله أن يأتي. فتقدم رجل مقنع لا تظهر منه إلا عيناه وقال: أنا صاحب الثقب وما جئت إلا لأنك استحلفتني، وأنا أسألك بالله أن لا تسألني عن اسمي وإذا عرفته فلا تخبر به أحداً لأني عملت ذلك لمن يقدر أن يعطيني أكثر مما تعطيني، فإن كان عندك مال أو جائزة فقد عملت الذي عملته لله الذي يعطي أكثر مما عندك!!

عن مقدمة الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي
لكتاب: عبقرية خالد بن الوليد العسكرية
تأليف القائم مقام أركان حرب أحمد اللحام

تاريخ الفتوحات الإسلامية مليء بعشرات قصص البطولات الخارقة والتضحيات العظيمة التي ظهرت من جنود الفاتحين على اختلاف درجاتهم وتباين أصولهم وتباعد أعمارهم، من الشيخ الكبير حتى الفتى

اليافع ذكوراً وإناثاً على حد سواء.. ولكن ما يميز هذه القصة إصرار صاحبها على كتمان اسمه لأنه عمل ما عمل لا ليخلد التاريخ اسمه بل ليخلد عمله، أما اسمه فمعروف عند رب العالمين وهو الذي سيجزيه عما عمل خير الجزاء.

لو أن هذه القصة رويت قبل عشرين سنة لكانت غريبة وقد لا يصدقها الكثيرون، ولكن ما نسمعه الآن من قصص البطولات العظيمة في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وأخيراً في لبنان، وما نراه على شاشات الفضائيات من ذلك يجعلنا نعتقد أن في المسلمين خيراً كثيراً، وأن هذه الأجيال هي من سلالات تلك التي سبقتها وقدمت للعالم أروع الأمثلة في التضحية بالنفس في سبيل المبادئ العظيمة التي يحملونها.

إن ثقب الأرض في عملية (الوهم المتبدد) التي انتهت بأسر الجندي الإسرائيلي، وثقب الجدار الذي بناه الإسرائيليون على حدودهم مع مصر ومرور عشرات الفلسطينيين المحتجزين خلفه، وفيما رأينا وسمعنا من بطولات المقاومة اللبنانية وما أنجزته من أعمال انتهت بكسر شوكة (الجيش الذي لا يقهر) أكبر تصديق لقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/٢٤٩] وفي كل هذا أيضاً حجة قاطعة على أن قوى الشر والعدوان مهما عظمت لا تقف أمام إرادة الأبطال أصحاب العقيدة، حتى ولو كانوا عزَّلاً من السلاح أو شبه عزَّل.

إن المرأة المسلمة التي قالت حين بلغها استشهاد أولادها في القادسيَّة: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم. كانت قدوة لآلاف النسوة اللواتي نراهن رأي العين وهن يزغردن حين يستشهد أزواجهن أو إخوانهن أو حتى أبناؤهن من أطفال الحجارة، الذين أصبحوا أمثولة في كل العالم لشعب لا يرضى الهوان ولا يستسلم للذل.

إلى هذا الجندي المجهول صاحب الثقب، وإلى كل بطل يخوض معارك الشرف والكرامة في كل بلد مسلم ألف تحية وسلام، ولكل من استشهد منهم ألف ألف رحمة إن شاء الله.

أين وضع الأمانة؟؟

من النوادر التي جرت للسيد محمد شريف النص[1] أن رجلاً دخل عليه في محله التجاري وقال له أمام بعض التجار: أعطني الأمانة التي أودعتها لديك، فقال له: ما قدرها؟ أجاب: مئتا ليرة عثمانية ذهبية، سأله: هل أنت متأكد؟ أجاب: طبعاً متأكد. ففتح السيد النص صندوقه الحديدي ودفع له مئتي ليرة عثمانية ذهبية.

وبعد ثلاثة أشهر عاد ذلك الشخص إلى السيد النص وأعاد له المبلغ طالباً أن يسامحه وقال: كنت ماراً بالطريق وصادفني الشيخ موسى الطويل فتذكرت أنني أودعت الأمانة عنده وليس عندك ولهذا استلمتها وأعدت المبلغ إليك، ثم سأله: كيف دفعت لي وأنت لم تستلم مني شيئاً؟ فقال له: أنت رجل محترم وسمعتك معروفة لا يمكن أن تعتدي على غيرك، ولما دخلت علي وطلبت الأمانة كان لدي بالمحل أصدقاء لهم مكانتهم فإذا لم أدفع لك يظنون أنني أنكر واقعة لا تحتاج إلى جدال فاشتريت سمعتي بمالي ودفعت إليك مئتي ليرة عثمانية، وهاهي الحقيقة ظهرت وتذكرت أنت أين أودعت أمانتك فأعدت لي المبلغ مع الاعتذار، وهنا القول المأثور: المال الحلال لا يحرق ولا يسرق ولا يغرق.

عن كتاب: السيرة التجارية
مذكرات السيد بدر الدين الشلاح

---

(١) السيد شريف النص من كبار تجار دمشق المعروفين بعلمهم وسيرتهم العطرة في تعاملاتهم في القرن الماضي (القرن العشرين).

هذه القصة على بساطتها فيها الكثير من المواقف السامية من كل طرف من الأطراف التي اشتركت فيها، ومرجعها كلها أمر واحد هو التحلي بالأخلاق الإسلامية الصحيحة التي غرسها الإسلام في كل متبعيه.

الموقف الأول يتجلى في الثقة المطلقة من صاحب الأمانة التي وضعها عند أحد التجار ونسي عند من وضعها؛ لأنه واثق من أنها ستعود إليه سالمة كاملة حيثما وضعها، ودون أن يطلب من المؤتمن وثيقة ما تشعر بمقدار هذه الأمانة وتاريخ إيداعها وشهوداً على ذلك. ولو لم يكن هذا الأمر سائداً في هذه الحقبة من الزمن بين التجار لاتخذ المودع شيئاً من الاحتياط، وهو مالم يفعله ولا فكر فيه كما يبدو.

الموقف الثاني يتجلى في التعليل الذي قدمه السيد النص لعمله؛ وهو حرصه على سمعته باعتباره تاجراً محترماً ولو على حساب مبلغ كبير من المال، فقد كان للسمعة قيمتها وكان كل إنسان حريصاً على ألا تمس سمعته، لأنها رأس ماله الحقيقي الذي يرفع مقامه بين الناس ويجعله معززاً مكرماً ناصع الجبين مرفوع الرأس.

الموقف الثالث يتجلى في أمانة المودع الذي أعاد المبلغ إلى السيد النص بعد أن تذكر عند من أودعه وعاد إليه فاسترده، فلم يفكر في السكوت عن المبلغ الذي أخذه خطأ وعدم رده إلى صاحبه الذي لا يستطيع مطالبته به ولو عرف الحقيقة بعد حين؛ لأن إعطاءه له في البدء دون تردد يعد اعترافاً منه بصحة قول المودع، هذا طبعاً بالنسبة إلى منطق التعامل في أيامنا هذه، أما منطقهم فكان شيئاً آخر لأنه قائم على وازع داخلي يحكمه ميزان دقيق هو ميزان الوجدان والضمير والصدق، لا ميزان الادعاءات الكاذبة والوثائق المزورة والشهود الزور.

لماذا فقدت الثقة بين الناس؟ ولماذا انتشر الغش والخداع والاحتيال والابتزاز للوصول إلى الثروة ولو على حساب السمعة والشرف اللذين أصبحا كلمتين جوفاوين ينظر إلى من يمسك بهما نظرتنا إلى المتخلف المسكين؟، الجواب معروف وهو فقد الوازع وفقد القدوة فهل نجدهما يوماً؟؟.

ربح البيع

روي عن أبي عثمان الهذلي عن صهيب (هو صهيب الرومي) قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك؟! والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تُخَلّون عني؟ قالوا: نعم. فدفعت إليهم مالي فخلوا عني فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ربح صهيب ربح صهيب مرتين.

عن كتب السيرة

يخرج الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء التاريخ بين حين وحين بنظرية جديدة يحاولون فيها تعليل ما يحدث في المجتمعات البشرية من أحداث كبيرة كالحروب والثورات والانقلابات، وتحاول كل نظرية سد الثغرات الموجودة في سابقاتها من النظريات كما تحاول تعميمها، ثم ما يلبث أن تُرى فيها ثغرات كما بدت في سابقاتها.. من هذه النظريات مثلاً النظرية القائلة بسيطرة العامل الاقتصادي في كل حوادث العالم الكبيرة، وقرأت منذ حين بحثاً مطولاً في هذا الشأن، يعزو فيه كاتبه انتشار الدين الإسلامي السريع بين العرب إلى فقرهم وإلى اعتقادهم أن إسلامهم سيخرجهم مما هم فيه من فقر وسيحقق لهم مكاسب كبيرة

فيما سيحصلون عليه من غنائم وثروات، مقارناً ذلك بالثورة الفرنسية والثورة الشيوعية وغيرهما..

وإذا كان للعامل الاقتصادي تأثير لا ينكر في كثير من الحركات التاريخية الكبيرة فإن التدقيق يبين تهافت هذه النظرية حين تعميمها لتطبق في انتشار الإسلام.

أول ما يلفت الانتباه أن هذه النظرية تجرد الناس من كل قيم الخير التي وضعها الله فيهم، وتهمل ما يمكن أن يبذل الناس من تضحيات في سبيل عقيدة يأخذون بها أو فكرة يدافعون عنها أو فريق ينتمون إليه، مهما كانت قيمة هذه العقيدة وأهمية هذا الفريق، والأمثلة على ذلك نراها كل يوم، فكم من قتيل ذهب بعد مشاجرة جرت تعصباً لفريق من فرق كرة القدم بعد مباراة غلب فيها هذا الفريق، وكم من مشكلة جرَّ إليها الدفاع عن ممثل أو ممثلة، فكيف إذا كان الموضوع أكبر من هذا بكثير كالدفاع عن حزب سياسي أو عن دين إلهي.. ولاسيما إذا اقتنع به الإنسان بعد فهم وإيمان.

والأمر الثاني الذي يجب الانتباه إليه أن الدين الإسلامي خاصة ليس فيه ما يحض على جمع المال أو ما يشعر بميزة الغني على الفقير، بل إنه على العكس يحض على الإنفاق ويحث على البذل والعطاء، ويساوي بين الغني والفقير بل يجعل للفقير حقاً معلوماً في مال الغني، والزكاة ركن من أركان الإسلام، والويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالاً وعدده، والويل للذين يكنزون الذهب والفضة.

ولو لم يكن هذا صحيحاً فكيف نعلل احتمال بلال ثقل الرحى على صدره ملقى في الشمس يضرب بالسياط وهو يصيح: أحد أحد. هل كان يفكر في ربح مادي أم أنه وجد فكرة الإله الواحد هي الفكرة الصحيحة المعقولة فاحتمل في سبيل بقائها والسعي لنشرها كل هذا الأذى؟ وكيف

نعلل حصار المسلمين الأوائل في أحد شعاب مكة محرومين من الطعام ومحرم عليهم الاتصال بالناس والتعامل معهم، أكانوا يطمعون من وراء ذلك بكسب مادي أم أن ثقتهم بصحة عقيدتهم وإيمانهم بنصر الله هو الذي جعلهم يتحملون هذا الحصار؟.

وقصة صهيب تظهر عمق إيمان هذا الصحابي الكريم الذي تنازل عن ماله كله مقابل الالتحاق بالرسول العظيم، والتمتع بصحبته والاغتراف من معين تعاليمه السماوية، مع أنه تعب في جني هذا المال كما يبدو في سياق القصة حين يقول على لسان قريش: "جئتنا ولا مال عندك". والمعلوم أن الإنسان قد يتهاون في مال أتاه دون تعب عن طريق الإرث مثلاً فيسهل عليه الاستغناء عنه، أما أن يستغني عن مال تعب في جنيه فأمر صعب، ومع ذلك فقد رضي صهيب بما طلب منه عن طيب خاطر ورضا نفس؛ لأن الغاية التي يسعى إليها أكبر من أن تقدر بثمن مهما كان كبيراً.

وأمثال صهيب كثيرون، ومن المعلوم أن الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يتبرع بالكثير من ماله في كل مناسبة، وحين سأله الرسول ﷺ في إحدى المرات التي تبرع بها بكل ماله: "ماذا تركت لعيالك؟" قال: "تركت لهم الله ورسوله". وكذلك كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحاول منافسة أبي بكر رضي الله عنه فيتبرع بالكثير الكثير، ومن المعلوم أن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه جهز جيشاً كاملاً من ماله في إحدى الغزوات، والخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه تبرع بما هو أكثر من المال حين عرض حياته للخطر بنومه في فراش النبي ﷺ ليلة هجرته من مكة.

فالمال عند هؤلاء الصحابة الكرام لم يكن واسطة للمتعة والتباهي، ولم يكن لإنفاقه في ملذات الدنيا، بل كان لاستخدامه في سبيل نشر دعوة

الإسلام الذي اقتنعوا به ديناً كاملاً سيكفل لهم التمتع بالسعادة الأبدية في الدار الآخرة التي هي دار البقاء، لا في هذه الدار، دار الفناء.

ولم يقتصر الأمر على الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم بل تعداه إلى جميع الناس رجالاً ونساءً، فقد أسلم أحد الرجال قبيل إحدى غزوات النبي عليه الصلاة والسلام، وحين انتهت الغزوة أعطى النبي هذا الرجل حصة من الغنيمة فأبى أخذها وقال للنبي: "ما لهذا تبعتك!!" وسبق ذكر قصة العجوز التي رفضت أخذ المال الذي أرسله إليها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أهناك بعد هذا مثل في العفة والصدق والإيمان؟؟.

وقصص استعفاف بعض الموظفين والقضاة والعلماء في كل العصور الخالية منشورة في كل كتب التاريخ، وهي أكثر من أن تحصى، وليس بعيداً الزمن الذي كان فيه بعض الرؤساء والوزراء وكبار رجال الدولة في بلدنا يبدؤون حياتهم العامة موسرين أغنياء، ويموتون بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال فقراء، وقد أنفقوا أموالهم في سبيل القضايا العامة التي نذروا أنفسهم لها، وأذكر واحداً من هؤلاء فقط مثالاً هو المرحوم شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية في الخمسينيات من القرن الماضي فقد كانت له الأراضي والمزارع التي ورثها عن آبائه قبل استلامه الحكم، فأنفقها كلها، ولم يبق لديه ما يستطيع به تغطية نفقات عملية جراحية أجريت له قبل وفاته فتبرع له بها ملك السعودية آنذاك!. لعل علامات التعجب والاستفهام بل علامات الدهشة والاستغراب ترتسم على وجوه الكثيرين ممن يقرؤون هذا الآن، ولكنه هو الواقع المعروف والمشهور. وأمثال شكري القوتلي كثيرون من زملائه كفخري البارودي الذي كانت داره مفتوحة دائماً للاجتماعات الوطنية والثقافية على مختلف المستويات، ومات أخيراً في مستشفى عام لا يملك من حطام الدنيا شيئاً.

وفي أثناء العدوان الإسرائيلي الحقير الأخير على لبنان وحملة التبرعات التي حدثت للتعويض عن المنكوبين والمهجرين، سمعنا ورأينا الكثير الكثير من كرم الناس النابع من طيب سجاياهم وقوة إيمانهم، فقد أتت سيدة من إحدى القرى ومعها مبلغ ٧٣ ألف ليرة سورية وقدمتها للجنة التبرعات قائلة إن هذا كل ما تملك، ولو أن معها أكثر لما قصرت في تقديمه، وسيدة من فلاحي الزرقاء في الأردن تبرعت بدجاجتين وسلة بيض هي كل ما تملك، ولما حارت لجنة جمع التبرعات بما تعمل بهذا التبرع وكيف تتصرف به، اشترى أحد الحاضرين الدجاجتين بمبلغ ٢٥ ديناراً وقدمها للجنة (وهذه مكرمة ثانية)، وتبرع الكثير من الأطفال بما جمعوه في (مطاميرهم)، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على صدق القول الذي يصف النبي ﷺ وأمته أن الخير فيه وفي أمته إلى يوم القيامة. ففي كل جيل وفي كل بلد رجال صدقوا الله فيما عاهدوه عليه، وعلى هؤلاء وأمثالهم يُعتمد في إرجاع عزة الإسلام ومجد المسلمين إن شاء الله تعالى.

المسلمون إذن في الماضي وفي الحاضر أصحاب عقيدة يبذلون في سبيلها كل شيء بما في ذلك أموالهم، ولا يطمعون في كسب المال كما يعتقد بعضهم، لم ينتصر المسلمون الأولون إلا بالإيمان الصادق والعقيدة الراسخة وبعدهم عن الأثرة، ولم يصل المسلمون إلى ما وصلنا إليه من التردي والانحطاط إلا لأنهم ابتعدوا عن هذا السلوك وآثروا الدنيا على الدين، وأصبح همهم الوصول إلى المراكز لجمع المال لا لخدمة الناس، ولا يهمهم أن يجمعوا المال بطرق مشروعة أو غير مشروعة شريفة أو غير شريفة، ولا يهمهم كيف ينفق هذا المال وعلام ينفق، فقد ضاعت المثل العليا وضاع معها كل شيء.

مصادرة هدية

وجّه عمر بن الخطاب إلى ملك الروم بريداً، فاشترت امرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب طيباً بدينار، وجعلته في قارورتين وأهدته إلى امرأة ملك الروم، فرجع البريد بملء القارورتين من الجواهر، فدخل عليها عمر وقد صبَّته في حجرها فقال لها: من أين لك هذا؟ فأخبرته فقبض عليه وقال: هذا للمسلمين، فقالت: كيف وهو عوض عن هديتي؟ قال: بيني وبينك أبوك، فقال علي: لك منه بقيمة دينارك والباقي للمسلمين لأن بريد المسلمين حمله.

المنتخب من ربيع الأبرار

حادثة صغيرة ولكنها ذات دلالات كثيرة، وحوار قصير ولكنه ذو مغزى كبير. أول ما يستدل عليه من هذه الحادثة العلاقة الموجودة بين الدولة الإسلامية الناشئة ودولة الروم العريقة، وتبادل البريد بين هاتين الدولتين يدل على وجود مصالح أو قضايا مشتركة (بتعبير هذه الأيام) بينهما. ومع اختلاف الديانات والمعتقدات في الدولتين فإن ذلك لم يمنع من قيام (حوار بنّاء) بينهما بشكل (ودي) يدل عليه تبادل الهدايا بين زوجتي (الرئيسين).

هذه العلاقة تدل بشكل صريح على أن الدين الإسلامي لم يأمر المسلمين بقتال الناس كيفما اتفق، وحكام المسلمين ليسوا (إرهابيين) يريدون القضاء على غير المسلمين، بل إن (العيش المشترك) ممكن ومطلوب إذا احترم كل فريق الفريق الآخر، ولا أخوض في هذا الموضوع فهو صريح وواضح في أوامر التنزيل الحكيم الذي لا يأمر بالقتال إلا من يعادي المسلمين ويجاهرهم العداء ويبدؤه، والصلح فرض منذ اللحظة التي يجنح فيها الخصم للسلم. هذه المبادئ عرفها المسلمون قبل أكثر من ألف وثلاث مئة سنة من إعلان مبادئ ويلسون وتأسيس عصبة الأمم وهيئة الأمم ومجلس الأمن، وغير هذا من المنظمات والهيئات والمؤسسات وما قرر فيها من معاهدات، وما لحق بها من تفاسير وبرتوكولات وإعلانات عن (حقوق الشعوب في تقرير مصيرها) وعن نشر مبادئ الديمقراطية والعدالة والمساواة، وغير هذا الكثير الكثير من الكلام المزخرف والمبادئ المنمقة، وكلها بلا استثناء حبر على ورق، كتب للتخدير والتمويه والغش والخداع لم يطبق منها شيء ولن يطبق منها شيء.

وثاني ما يستدل عليه من الحادثة وضع المرأة المسلمة في ذلك العصر؛ فزوجة أمير المؤمنين عرفت بالبريد المرسل إلى ملك الروم فأرسلت مع البريد هدية لزوجته دون علم زوجها كما يبدو من سياق الحادثة، فهو لم يعرف إلا حين رأى الهدية الواردة إليها. وهكذا نرى الحرية التي كانت تتمتع بها المرأة المسلمة، ولاسيما التصرف بأموالها الخاصة بها، الأمر الذي لم تعرفه المرأة الغربية إلا حديثاً في بعض الدول، وعدا حرية التصرف بالأموال كان لها حق المشاركة في كل شيء والمناقشة وإبداء الرأي مع الكبير والصغير حتى مع الخليفة نفسه، وعرف التاريخ الإسلامي نساءً كثيرات كانت لهن أعمال جليلة في كل المجالات

في الوقت الذي كان النقاش فيه حاداً في أوربة حتى قرابة القرنين أللمرأة روح أم لا؟.

والدين الإسلامي أوصى بالمرأة والحفاظ على مكانتها مع الاحترام والتقدير، وعدا ما جاء في القرآن الكريم بحق الأمهات ومساواة النساء بالرجال في كل شيء إلا بعض الأمور التي يفرض المنطق والعقل وجود فرق بينهما، فإن كثيراً من الأحاديث الشريفة توصي بالنساء، وحتى خطبة الوداع لم تخل من تصريح واضح بوجوب احترام المرأة الاحترام المبني على العقل والمنطق والأخلاق الكريمة والعقيدة القويمة، لا احترام المظاهر وتقديم ذكر النساء على ذكر الرجال في (سيداتي وسادتي..).

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى القصة لأقول إن عمر ما همَّه من الأمر إلا زيادة ثمن الهدية الآتية على ثمن الهدية المرسلة، عدا استعمال بريد المسلمين في إيصال الهدايا مما يعد بتعبير العصر الحاضر (استغلالاً للنفوذ)، وهو ما لا يرضاه عمر ولا يرضاه أي مسلم يلي أمور المسلمين. وحين لم تقنع زوجته بما قاله طلب تحكيم أبيها علي بن أبي طالب ﷺ جميعاً، وهنا دلالة ثالثة في هذه القصة هي ثقة عمر بن الخطاب بما سيقضي به والد زوجته وتأكده من أنه سيحكم بحسب ما يمليه الحق والشرع دون التحيز إلى ابنته، وهذا ما كان فعلاً فقد أبدى علي رأيه بوجوب إحالة ما يزيد على ثمن هديتها إلى بيت مال المسلمين، لماذا؟ لأن بريد المسلمين حمله، وبريد المسلمين لخدمة المسلمين وليس لخدمة شخص مهما كانت منزلته حتى ولو كان هذا الشخص زوجة أمير المؤمنين.

لو أن مثل هذا الأمر حدث في أي بلد من بلدان العالم اليوم فهل يفكر أحد من حكام هذا البلد فيما فكر فيه عمر، وهل يقضي أحد بما قضى به علي؟.

هذا هو الإسلام الذي تحاربه اليوم أعتى أمم الأرض ويشاركهم في ذلك ويأخذ بيدهم مع الأسف بعض من يدعون أنهم مسلمون، وهؤلاء هم المسلمون الذين يحاول العالم اليوم وصمهم بالرجعية والتعصب والتشدد والإرهاب، فعلى من تنطبق هذه الصفات؟.

إيثار لا أثرة

.... وأقام أبو عبيد[1] بكسكر[2] وسرّح المثنى وغيره من القوّاد يغيرون على النواحي ويفلّون عصائب الجنود التي كانت متفرقة هناك، وصالحه أهل بعض تلك النواحي، وجاء فروخ ودفر أنداد[3] من أهل الصلح إلى أبي عبيد بآنية فيها أطعمة فارس من الألوان والأخبصة وغيرها، وقالوا: هذه كرامة أكرمناك قِرىً لك، قال: أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله؟ قالوا: لم يتيسر ونحن فاعلون. قال: لا حاجة لنا في ما لا يسع الجند، وقدم إليه آخرون مثل ذلك فأبى وقال: بئس المرء أبو عبيد إن صحبه قوم من بلادهم أهرقوا دمهم دونه أو لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه، لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم.

عن كتاب الخلفاء الراشدون
تأليف عبد الوهاب النجار

قائد مثل أبي عبيد لا يميز نفسه من جنده ويأبى أن يتمتع بشيء لا يتمتعون بمثله سواء بسواء، خليق به أن يُحَبَّ ويحترم ويكون موضع

---

(١) أبو عبيد بن مسعود الثقفي القائد الذي أمّره عمر بن الخطاب على رأس جيش المسلمين الذاهب لفتح بلاد فارس.

(٢) مكان في بلاد فارس.

(٣) من قواد الفرس.

الثقة، وعفة أبي عبيد دليل طيب محتده، وتعليله لما فعل دليل تواضعه، فهو لا يدعي النجاح لتخطيطه ولا ينسب النصر إلى نفسه، وإنما يقدر عمل كل فرد من أفراد جيشه وتضحياته؛ لذلك يأبى أن يُميز منهم حتى ولو بطعام أهدي إليه.

هذه القصة واحدة من مئات القصص التي تروى في هذا الموضوع نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

قصة ذلك الرجل الذي أتى الرسول ﷺ جائعاً ولم يجد الرسول عند نسائه ما يطعمه فقال: ألا رجل يضيف هذا الليلةَ رحمه الله؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله وذهب والضيف إلى بيته وقال لزوجته: هذا ضيف رسول الله فأكرميه. فقالت: والله ما عندنا إلا طعام الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فنطفئ السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت، وفي هذا الرجل وزوجه نزلت الآية الكريمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٥٩/٩].

وقصة معركة اليرموك حين كان عدد من الجرحى على وشك الموت فتقدم حذيفة العدوي من أحدهم وهو عكرمة بن أبي جهل بقليل من الماء، فأشار إلى جريح بجانبه هو عياش بن أبي ربيعة قائلاً: أعطه الماء فقد يكون أحوج إليه مني، ولما ذهب إليه أشار الثاني إلى آخر هو الحارث بن هشام مكرراً القول نفسه، فلما وصل إليه وجده ميتاً فعاد إلى عكرمة فوجده قد مات، وانتقل إلى عياش فوجده قد مات كذلك.

وقصة أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تبرع بتجهيز إحدى الغزوات بكل ماله وسأله رسول الله ﷺ: ماذا أبقيت لأهلك؟ فقال: تركت لهم الله ورسوله. وقصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قدم العون لمئات المحتاجين عام المجاعة....

وقصة الإيثار الكبرى التي لم يكن لها سابقة في التاريخ ولا حدثت لها لاحقة حين آخى رسول الله بين الأنصار والمهاجرين، وشاطر المهاجرون الأنصار أموالهم وبلغ الأمر بالأنصار أن رسول الله دعاهم يوماً ليُقطِع لهم البحرين فقالوا: لا إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها!. فهل فوق هذه الدرجة من الإيثار درجة أعلى عند الله؟!.

قد يقال إن الكرم طبيعة من طبائع العرب وسجاياهم التي يفخرون بها في الأصل، ولكن الموضوع في هذه القصص وما شابهها ليس موضوع كرم فحسب، بل درجة أعلى من الكرم؛ فالكريم قد يعطي من فضل ماله ويكون عنده ما يكفيه أو فوق ما يكفيه بعد ذلك، أما أن يحرم الإنسان نفسه وأطفاله من الطعام ليقدمه للضيف، وأما أن يقدم نصف ما يملك لأخيه فهذا أكثر من الكرم وأعظم من الجود، إنه الخلق الذي غرسه الإسلام في المسلمين الذين تعلموا أن المال مال الله، وأنه الوسيلة لقضاء الحاجات لا للكنز والتفاخر به، وأن الله يعوضه من فضله أضعافاً مضاعفة في الدنيا، عدا ما لمنفقه في أوجه الخير من حسن الثواب في الآخرة.

بقي أن نقول إن كل هذه القصص طالت أعراض الدنيا من مال وطعام.. ومع أن المال يعادل الروح كما يقال، ولكن الأمر الأكبر والإيثار الأعظم هو أن يأبى الإنسان النجاة بنفسه من موت محقق تاركاً رفاقاً له تحت رحمة القدر، ويؤثر البقاء معهم وهو على مثل اليقين بأنه ملاقٍ حتفه لا محالة، تلك هي قصة أمين الأمة وأحد المبشرين بالجنة أبو عبيدة بن الجراح. وتتلخص بأن أبا عبيدة حين كان في بلاد الشام قائداً لجيوش المسلمين انتشر مرض الطاعون انتشاراً واسعاً حصد الألوف من الأرواح، وخاف الخليفة عمر بن الخطاب أن يصيب أبا عبيدة مكروه، فحاول إقناعه بشتى الوسائل أن يترك بلاد الشام ويلتحق بالمدينة المنورة، ولكنه أبى ذلك، فأرسل إليه عمر رسالة يقول له فيها: (إني بدت

لي إليك حاجة لا غنى لي عنك فيها، فإن أتاك كتابي ليلاً فإني أعزم عليك ألا تصبح حتى تركب إلي، وإن أتاك نهاراً فإني أعزم عليك ألا تمسي حتى تركب إلي). فلما قرأ أبو عبيدة كتاب الخليفة قال: (لقد علمت حاجة أمير المؤمنين إلي وهي أن يستبقي من ليس بباق) ثم كتب إليه: (يا أمير المؤمنين إني عرفت حاجتك لي، وإني في جند من المسلمين ولا أجد بنفسي رغبة عن الذي يصيبهم ولا أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره، فإذا أتاك كتابي هذا فحللني من عزمك وائذن لي بالبقاء).

فلما قرأ عمر الكتاب بكى بكاءً شديداً فسأله بعضهم: أمات أبو عبيدة؟ قال: (لا، ولكن الموت منه قريب). ولم تمض أيام حتى أصيب أبو عبيدة بالطاعون ومات بين جنده الذين أبى أن يكون أفضل من أحدهم.

أي عظمة هذه وأي كرم نفس هذا؟! صحيح أن العرب كانوا كرماء قبل الإسلام وكانوا أصحاب نجدة وأصحاب مروءة، ولكن التضحية لم تبلغ بهم هذا المبلغ، ولم يسمع عن أحدهم أنه ضحى بنفسه بهذا الشكل، إنه الإسلام الذي علم الناس أن لا قيمة للدنيا كلها، وليس من أحد يخلد فيها، وإنما الخلود في الآخرة حيث تجزى كل نفس ما عملت، لذلك فإن الحياة أصبحت لا تساوي شيئاً عندهم والسعيد من لقي ربه وهو راض عنه ليتمتع في الآخرة بالنعيم المقيم الحقيقي، إنه الإسلام الذي علم الناس كل الأخلاق الفاضلة ومن جملتها بل هو أعظمها (الإيثار).

رحم الله أبا عبيدة وأمثاله الغر الميامين الذين ضربوا المثل الأعلى في مكارم الأخلاق.

أخت الرجال

عن هشام بن عروة قال:

إن يزيد بن معاوية كتب إلى عبد الله بن الزبير: أني قد بعثت بسلسلة من فضة وقيدين من ذهب وجامعة من فضة وحلفت بالله لتأتينّي في ذلك، فألقى عبد الله بن الزبير الكتاب ولم يمتثل لطاعته، وكان يزيد بن معاوية قد تسلم زمام الحكم بعد أبيه معاوية فتثاقل عبد الله عن طاعته وأظهر عداوته له، فبلغ ذلك يوماً يزيد بن معاوية فأقسم لا يؤتى به إلا مغلولاً وإلا أرسل إليه، فقيل لعبد الله بن الزبير: ألا نضع لك غلاً من فضة تلبس عليه الثوب وتبر قسمه فالصلح أجمل بك، فقال: لا أبر والله قسمه ثم قال:

ولا ألين لغير الحق أسأله
حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

ثم قال: والله لضربةٌ بسيف في عز أحب إلي من ضربة بسوط في ذل. ثم دعا إلى نفسه وأظهر الخلاف ليزيد بن معاوية فبعث إليه يزيد حصين بن نمير الكندي وقال له: يا ابن برذعة الحمار! احذر خدائع قريش ولا تعاملهم إلا بالنفاق ثم القطاف، فورد حصين مكة فقاتل بها ابن الزبير وأحرق الكعبة، ثم بلغه موت يزيد فهرب، ولما مات يزيد دعا مروان بن الحكم إلى نفسه، ثم مات مروان فدعا عبد الملك إلى نفسه فعقد للحجاج جيشاً إلى مكة، وعندما وصل مكة نصب المنجنيق على جبل أبي قبيس يرمي به ابن الزبير ومن معه في المسجد. فخرج ابن الزبير يستشير

أمه ذات النطاقين بالأمر الذي عقد عليه الحجاج وهي يومئذ عجوز طاعنة فقالت: يا عبد الله ما فعلت في حربك؟ قال: بلغوا مكان كذا وكذا.. وضحك وقال: إن في الموت لراحة، فقالت أسماء ﵂: يا بني لعلك تتمناه لي. ما أحب أن أموت حتى آتي في أحد طرفيك إما أن تَملك فتَقَرَّ بذلك عيني وإما أن تُقتل فأحتسبك، ثم ودعها فقالت: يا بني إياك أن تعطي خصلة من دينك مخافة القتل.

وخرج عنها فدخل المسجد فقيل له: ألا تكلمهم في الصلح فقال: أَوَ حين صلح؟ هذا والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم ثم أنشأ يقول:

ولست بمبتاع الحياة بذلةٍ
ولا مرتقٍ من خشية الموت سلما

وبقي يقاتل في المسجد حتى قتل.

عن كتاب نساء حول الرسول
د. بسام محمد حمامي

عبد الله بن الزبير صاحب القصة هو ابن الزبير بن العوام وأسماء بنت أبي بكر الصديق ﵃ أجمعين. ربّته أمه فأحسنت تربيته وكان رجلاً لا كالرجال ولا أريد التحدث عن عبد الله وإنما التحدث عن أمه أسماء التي لها من المآثر والأعمال ما فاقت به مآثر الرجال.

كانت ابنة بارة وزوجة صالحة وأماً فاضلة ومسلمة مؤمنة صالحة، ولها في ذلك كله حكايات.

ربيت السيدة أسماء في بيت أبي بكر وهو من هو علماً وخلقاً وديناً ورجولة وإخلاصاً، فمن البديهي أن تكون ابنته صالحة ومن البديهي أن تكون برَّة، أول ما بدا ذلك حين قطعت نطاقها شطرين يوم هجرة أبيها مع الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، جعلت أحد شطريه للسفرة والآخر للقربة

لذلك سميت ذات النطاقين، وحين كان النبي ﷺ وأبو بكر في الغار في طريقهما إلى المدينة كانت أسماء تزورهما كل يوم ليلاً تحمل إليهما الطعام والشراب، وحين سافر أبوها لم يترك شيئاً من المال في داره فجاء جدها (أبو قحافة)، وكان أعمى، فقال لها: إن هذا والله (يقصد أبا بكر) قد فجعكم بماله مع نفسه. فقالت له: كلا يا أبه، قد ترك لنا خيراً كثيراً، ثم عمدت إلى حجارة فجعلتها في كوّة في البيت كان أبو بكر يضع ماله فيها وغطت على الأحجار بثوب، ثم جاءت بجدها وأخذت بيده ووضعتها على الثوب وقالت له: ترك لنا هذا، فتلمس الحجارة من وراء الثوب وقال: إذا ترك لكم هذا فنعم!.

أما أنها زوجة صالحة فقد كانت زوجة للزبير بن العوام وكان شديداً عليها، ومع ذلك صبرت عليه، وكان فقيراً ومع ذلك احتملت فقره وسوء حاله، ولم تقصر في واجباتها الزوجية وهي تقول في ذلك: تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤونته وأسوسه وأدق النوى الناضحة وأعلفه، وأستقي الماء وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، فكان يخبز لي جارات من الأنصار.. وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعها رسول الله على رأسي وهي مني على ثلثي فرسخ..إلخ.

وأما أنها أم فاضلة فيكفيها فخراً أنها ربت ابنها عبد الله أفضل تربية وأنشأته أفضل تنشئة، علمته الصدق والشجاعة والدفاع عن الحق مهما كان الثمن، وزرعت فيه الكرامة والنبل. دخل على أمه يوماً، وقال: إنني أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. فماذا كان جوابها؟ قالت له: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسلخ بعد الذبح فامض على بصيرتك واستعن بالله..!.

فهل أعظم من هذا الجواب.

إن هذه التربية العظيمة جعلت ابن الزبير لا يرضى الدنيّة، ويثبت في المعركة الأخيرة ويجاهد جهاداً مريراً يطرد مهاجميه جماعة بعد جماعة، حتى وقعت عليه شرفة من شرفات المسجد فقتلته فأخذ وصلب. ولم تلن أسماء لموت ابنها العظيم، بل بقيت شامخة مرفوعة الرأس، فقد جاءها الحجاج بعد موت ابنها - وقد كُفّت - وقال: يا أمّه إن أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك من حاجة؟ فقالت له: لست لك بأم؛ لكني أم المصلوب على رأس الثنية، ومالي من حاجة، ولكن انتظر حتى أحدثك بما سمعت من رسول الله ﷺ، إني سمعته يقول: يخرج من ثقيف كذاب ومبير أما الكذاب فقد رأيناه - تقصد المختار - وأما المبير فأنت (المبير أي المهلك).

وتُرك ابنها مصلوباً مدةً من الزمن فذهبت السيدة أسماء إلى الحجاج وقالت: أما آن لهذا الفارس أن يترجل. وأمر الحجاج بإنزال عبد الله وتسليمه لأمه فأخذت جثمانه وحنطته بيدها وكفنته وصلت عليه وشيعته إلى مثواه الأخير.

وكانت أسماء فوق كل هذا سيدة مسلمة حقة لم تدخر جهداً في العمل على نشر الدعوة الإسلامية ومساعدة أبيها في ذلك، وهكذا جمعت هذه السيدة الفاضلة من الصفات الكريمة الشيء الكثير، وقد اكتسبتها من فهمها الدين فهماً صحيحاً، فقد علمت أن الإخلاص والاستقامة أمران مهمان في الحياة لا تستقيم دونهما، وأن الحياة لا قيمة لها إلا مع الكرامة، وأن الكرامة يجب أن تحميها القوة، وأن القوة يجب أن ينيرها العقل والحكمة.

وإذا ذكرنا ما اتصفت به أسماء بنت أبي بكر فإنها لم تكن الوحيدة من النساء المسلمات في حملها هذه الصفات، وكتب التاريخ مليئة بأمثالها وبما قمن به من أعمال في كل مجال حتى في الدعوة إلى الدين،

وفي الاشتراك في الغزوات لتضميد الجرحى ونقل المؤن وشحذ السلاح، وأكثر من هذا الاشتراك في القتال مقاتلات مجاهدات في سبيل إعلاء كلمة الدين من أمثال أم الفضل زوجة العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام وأم عمارة وغيرهن كثير.

وفي تاريخنا الحديث رأينا في جنوب لبنان وفي غزة زغردة النساء حين تلقيهن أخبار استشهاد أبنائهن، وقوة شكيمتهن وصبرهن على ما أصابهن وأصاب أزواجهن وآباءهن وإخوانهن من دمار وتشريد. عدا ما قامت به كثير من النساء - حتى بأعمار صغيرة - من أعمال بطولية أو فدائية أدت إلى استشهادهن.

ومن هذه القصص نجد أن الدين الإسلامي لم يبخس المرأة حقها ولم يمنعها من ممارسة كل الأعمال حتى أصعبها إن كانت مؤهلة لذلك، ولكن ضمن ضوابط سليمة تحفظ لها عزتها وكرامتها وشرف رسالتها.

المِثل بعشرة

أخرج الملّا في سيرته عن ابن عباس قال: قُحط الناس في زمان أبي بكر فقال أبو بكر: لا تمسون حتى يفرج الله عنكم، فلما كان من الغد جاء البشير إليه يقول: قَدِمت لعثمان ألف راحلة بُرّاً وطعاماً، قال: فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: لقد بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة بُراً وطعاماً، بِعنا حتى نوسع به على فقراء المدينة. فقال لهم عثمان: ادخلوا. فدخلوا فإذا ألف وقرٍ[1] قد صب في دار عثمان، فقال لهم: كم تربحوني على شرائي من الشام؟ قالوا: العشرة اثني عشرة، قال: قد زادوني، قالوا: العشرة أربعة عشر، قال: فقد زادوني. قالوا: العشرة خمسة عشرة، قال: قد زادوني. قالوا: من زادك ونحن تجار المدينة؟ قال: زادني بكل درهم عشرة، عندكم زيادة؟ قالوا: لا، قال: فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة.

عن كتاب: فضائل سيدنا عثمان بن عفان
للمحب الطبري
إعداد وتحقيق عبد الحليم سليمان

---

(١) الوقر: الحمل الثقيل.

عثمان بن عفان ﷺ، ذو النورين، ثالث الخلفاء الراشدين، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومثل الكرم والجود والإيثار. هذه القصة لا تحتاج إلى تعليق وهي تدل على عمق إيمان هذا الرجل بالله وثقته به، كان عثمان يتمتع باحترام الناس ومحبتهم ومحبة الرسول الكريم ﷺ واحترامه؛ فقد زوجه إحدى بناته، ولما توفيت زوجه الثانية فتوفيت أيضاً فحزن عليها حزناً شديداً، فقال له الرسول ﷺ: لو كان عندنا ثالثة لزوجناك إياها، ومما يروى عن احترام الرسول له أن الرسول كان يوماً في داره مستلقياً وقد انكشف عنه إزاره قليلاً، فاستأذن للدخول عليه أبو بكر ﷺ فأذن له ودخل، ثم استأذن عمر بن الخطاب ﷺ فأذن له ودخل، واستأذن بعد ذلك عثمان ﷺ فاعتدل الرسول في جلسته وأصلح ثوبه ثم أذن له، واستغربت السيدة عائشة منه هذا فقال لها: كيف لا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة!.

كان عثمان ﷺ تاجراً واسع التجارة، ولكنه كان كريماً بَذَل هذا المال في سبيل الدعوة الإسلامية والجهاد في سبيل الله والتوسعة على المسلمين كلما ألمت بهم ضائقة أو أحوجتهم حاجة.

انحبس المطر وجفت المياه في إحدى السنين حتى كاد الناس يموتون ظمأً وكان لأحد اليهود بئر تسمى (بئر رومة)، فاستغل الفرصة (كعادة اليهود) ليضيق على المسلمين بحرمانهم من الماء، فما كان من عثمان ﷺ إلا أن اشترى البئر من هذا اليهودي الخبيث وجعلها وقفاً للمسلمين.

وفي غزوة تبوك لم يستطع النبي تجهيز الجيش الذي أراد إرساله لقلة ما لدى المسلمين من مال. فقام عثمان بتجهيز الجيش من ماله الخاص تجهيزاً كاملاً بعدته وسلاحه ومؤونته.

وأعظمُ ما يسجل لعثمان ﷺ من أعمال جمعُه القرآن الكريم؛ فحفظ بذلك كلام الله من العبث والضياع. وكان من حرصه على نشر

الدين الإسلامي أن وسع في زمن خلافته الفتوحات، وكان أول من بدأ الفتوحات البحرية بتجهيز أسطول بحري بإمرة واليه على دمشق معاوية بن أبي سفيان لفتح قبرص، وكان فَتْحُها أول فتح بحري في تاريخ الإسلام.

وإذا أضيف إلى كل هذا ما كان لعثمان من مكانة خاصة بأدبه وعلمه وإخلاصه وقربه من رسول الله استطعنا أن نقول إنه كان مسلماً حقاً، بل من أعاظم المسلمين، وهذا ما أثار عليه حفيظة اليهود والمنافقين والطامعين، فمكروا به ودبروا له المكائد وتقولوا الأقاويل، ودعوا إلى قتله وحاصروه في داره، ولكنه وقد بلغه كل ذلك أبى أن يطلب من أحد الدفاع عنه كيلا يقتتل المسلمون ويسفك بعضهم دماء بعض، حتى قتله أحد المهاجمين غدراً وهو يقرأ القرآن، فتلطخ المصحف الشريف بدمه الطاهر. وهكذا عاش عثمان حميداً ومات شهيداً.

أيهما أعظم؟!

حين كانت جيوش المسلمين تفتح بلاد الشام بقيادة خالد بن الوليد توفي الخليفة أبو بكر الصديق، وتولى الخلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وقد بعث الخليفة ابن الخطاب رسالة إلى أبي عبيدة بن الجراح أحد قادة ألوية خالد رسالة احتفظ بها وظل أمرها مطوياً عن الجميع حتى انتهى المسلمون من أمر الرومان في دمشق، وعندها أقبل أبو عبيدة على خالد وفي يده الرسالة التي بعث بها عمر، وفيها عزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبي عبيدة مكانه فقبل خالد الأمر بهدوء وكأن لم يحدث حدث ضخم، وبعد صمت قال خالد لأبي عبيدة: يرحمك الله ما منعك أن تعلمني حين جاءك الأمر. وأجابه أبو عبيدة: إني كرهت أن أكسر عليك حربك، وما سلطان الدنيا أريد ولا للدنيا أعمل، وكل ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن أَخوان وما يضير الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه.. وفي الصباح التالي كان أبو عبيدة على رأس الجيش بينما حمل خالد سيفه ومشى خلفه أطوع من بنانه.

بتصرف عن كتاب: رجال الله
تأليف نجيب الكيلاني

ليس المهم من يقود الجيش، بل المهم من هو الأقدر على ربح المعركة. وليس المهم أن يكون المحارب في المقدمة أو في المؤخرة

ما دام كلاهما يعمل لغاية واحدة هي إعلاء كلمة الحق ونشر دين الإسلام. هذا هو المنطق الذي كان يحكم الناس في بدء الدعوة الإسلامية، وقد تشربوا جميعاً حب هذا الدين وأعطوه كل ما يستطيعون لرفع شأنه ونشره ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

أبو عبيدة بن الجراح أحد الأوائل الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق ﷺ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة الذي كان يلقبه الرسول الكريم أمين الأمة، أبو عبيدة الذي أنزل الله فيه قرآناً بعد معركة بدر - التي قَتل فيها أباه الذي كان يقاتل مع المشركين-: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٢].

أبو عبيدة بن الجراح الذي رشحه أبو بكر ليكون خليفة رسول الله يوم السقيفة حين أمسك بيده بإحدى يديه وأمسك بيد عمر بن الخطاب باليد الثانية وقال للمجتمعين: قد رضيت لكم أحد هذين أيهما شئتم. ثم كانت البيعة لأبي بكر كما هو معلوم.

هذا الإنسان الكبير الموثوق المعترف بفضله ورجاحة تفكيره يقول بكل تواضع: (ما سلطان الدنيا أريد ولا للدنيا أعمل..) وقد كان بإمكانه أن ينسب الانتصار المؤزر الذي انتصره جيشه إلى نفسه لو بلَّغ خالداً خبر عزله واستأثر هو بالقيادة، ولكن لا يهم من انتصر وإنما يهم أن ينتصر.

وخالد بن الوليد الذي لقبه الرسول الكريم بسيف الله المسلول فإنه ولو تأخر في إسلامه ولكنه عوَّض ذلك بما قدم من أعمال جليلة خلدت اسمه في كل المعارك التي خاضها والفتوحات التي حققها في بلاد الشام، لقد تلقى خبر عزله بهدوء وحين قيل له في ذلك قال: (أنا

لا أحارب من أجل عمر) إنه يحارب كزميله ورفيقه في السلاح لإعلاء كلمة الحق، ولا يهم أكان في المقدمة أم في المؤخرة، فلكل أجره ولكل نصيبه في العمل ونصيبه في النصر. كان خالد بطلاً مغواراً وقائداً محنكاً وكان إلى جانب ذلك مثال الجندي الملتزم بأوامر قادته، ومع أن الناس تكلموا في أمر عزله وانتقدوا عمر رضي الله عنه لذلك، فإن خالداً نفسه لم يحرك ساكناً، ولا وجد على عمر ولا على غير عمر من أجل هذا، بل ظل حتى النهاية حريصاً دائماً على إحراز النصر تلو النصر دون مِنّة ولا طلباً لمنصب دنيوي رفيع؛ لأنه يعمل لنشر مبدأ اعتقد عظمته وعلو شأنه، وحين وافته المنية قال كلمته الشهيرة: (لم يبق في جسمي موضع إلا فيه طعنة رمح أو ضربة سيف وهأنذا مع ذلك أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء..).

نعم، لا نامت أعين الجبناء. لقد كنت يا خالد في حياتك مثلاً للشجاعة والإخلاص، وسيبقى ذكرك أبد الدهر مثلاً يحتذى، فنم نوم الأبطال وهنيئاً لك مقامك في عليين إن شاء الله.

دعها.. أما تعرفها؟!

"يا عمر. عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ ترعى الصبيان بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سُمّيت عمر، ثم تذهب الأيام حتى سُمّيت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب".

وعمر بن الخطاب أمير المؤمنين ﷺ واقف أمامها يسمع كلامها في إمعان وقد أحنى إليها رأسه صاغياً إليها، وقد كان برفقته أحد مرافقيه، وهو الجارود العبدي، فلم يستطع صبراً لما قالته خولة لأمير المؤمنين، فقال لها في غضب: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين. فقال عمر بن الخطاب ﷺ: دعها، أما تعرفها، هذه خولة التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، وعمر أحق - والله - أن يسمع لها، وفي رواية أنه قال أيضاً ﷺ: والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها، إلا أن تحضر صلاة فأصليها ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها.

عن كتاب نساء حول الرسول

د. بسام محمد حمامي

قال الله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ

إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١-٤].

جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآيات الكريمات: عن عائشة قالت: تبارك الله الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبُرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية.

وبعد قليل يجيء كذلك في التفسير نفسه: روى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة..

قصة بنت ثعلبة هذه مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليست الوحيدة من نوعها، ومن المعروف أن عمر رضي الله عنه كان شديداً ولكن في الحق، وهو حين ينبهه أحد لخطأ أو يقدم له النصح يتقبل هذا وذلك بكل طيبة نفس، كقصته مع التي راجعته في إحدى القضايا ولم يستح أن يقول على الملأ: أصابت امرأة وأخطأ عمر، وقصته حين اتهمه أحدهم في المسجد بأخذ قطعة من القماش يصنع منها بردة له زيادة على ما وزع على الناس كافة؛ لأنه كان طويل الجسم لا تكفيه قطعة واحدة، فإنه لم يغضب ولم يعنّف القائل وإنما طلب من ابنه عبد الله أن يرد عليه فذكر أنه أعطاه قطعته ليصنع منها ثوبه، وحين انتقده أحد المصلين في المسجد لعزله خالداً من

قيادة جيش المسلمين في الشام لم يغضب ولم ينفعل وإنما رد بكل هدوء رداً مقنعاً.

إذا أضفنا إلى كل هذا ما يروى عنه من قصص تفوق الخيال؛ كحمله كيس الدقيق للمرأة التي رآها توهم أولادها بأنها تهيئ لهم الطعام في حين كانت تعمل على أن يناموا على الطوى، وكَعَدْوِه في حمارّة القيظ وراء بعير ضل عن صاحبه ليعيده إليه، وموقفه التاريخي حين ذهب لاستلام القدس من حاكمها. أقول: إذا علمنا كل هذا علمنا بحق ما معنى الديمقراطية وما معنى أن يكون الحاكم خادماً للرعية، يرعى مصالح الناس ويسهر على راحتهم..

هذه كانت سيرة عمر الحاكم العادل مع كل الناس، فليس غريباً إذن أن يقف موقفه مع خولة بنت ثعلبة التي خاطبته بلهجة قاسية؛ لأن الرسول نفسه كان استمع إلى شكواها، بل إن الله جل جلاله أنصفها، وهي بشكواها قد أنصفت النساء جميعاً بما نزل بسببها من قرآن يتلى إلى أبد الآبدين.

الديمقراطية وحرية القول يا دعاة الديمقراطية في البلاد التي تدعي التقدم ليست بيانات انتخابية، ولا خطابات رنانة في مجالس العموم ومجالس اللوردات، ولا منشورات وكتباً توزع في المكتبات، ولا تصاريح تلقى أمام مكبرات الصوت في الساحات، ودعاوى يُدّعى بها للصحفيين حاملي آلات تسجيلهم في اللقاءات الصحفية في المناسبات ودون مناسبات، إنها عقيدة وإنها عمل وإنها سلوك نابع من إيمان قوي، وهذا ما علّمه الدين الإسلامي لكل الناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣] و«لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» هذه هي الديمقراطية فهل من مُدّكر؟!.

لم تترك لنا عذراً

لما ولي هشام بن عبد الملك الخلافة أقبل عليه وفد من العرب فقال لهم: ما بالكم وقد تكأكأتم وتكتلتم! فأجابوا: نحن وفد العرب جئنا للشكوى وقد أصابنا الجدب، فأجابهم: سأنظر في أمركم ومصيركم إن شاء الله.

فهبّ من بين الوفد أصغرهم سناً وقال: يا أمير المؤمنين إن شكوانا لا تحتمل الانتظار وقد أصابتنا سنون ثلاث أذابت الشحم وأكلت اللحم ودقت العظم، وفي أيديكم فضول أموال فإن كانت لله فأنفقوا من مال الله على عباد الله، وإن كانت لهم فردوا عليهم أموالهم، وإن كانت لكم فتصدقوا عليهم منها إن الله يجزي المتصدقين. فقال هشام: لله درك لم تترك لنا عذراً في واحدة.

عن كتاب: أطفال نجباء في ظل الإسلام
محمد عبد الرحيم

هكذا علم الدين الإسلامي أتباعه: صاحب الحق يطالب بحقه أياً كان من الناس حتى الحكام، فهؤلاء الذين أصابهم الجدب وساءت حالتهم بسبب ذلك من حقهم أن يطلبوا العون، ولما كان الحاكم مسؤولاً عن رعيته فمن واجبه أن يستمع إلى شكاويهم ويوفر لهم حاجاتهم،

ولا فرق أن يتكلم من أصحاب الشكوى الكبير أو الصغير الرجل أو المرأة ما دام ينطق بالحق وضمن حدود اللباقة مع إظهار الحجة.

وقد أقام هذا الفتى الحجة كاملة ولم يترك مجالاً للسؤال والجواب. هذه الكلمات القليلة المدروسة - التي تقوم مقام مرافعة مؤلفة من عشرات الصفحات، يرجع فيها إلى المادة كذا والمادة كذا من القانون الفلاني، والفقرة كيت والفقرة كيت من المرسوم العلّاني، يخرج منها سامعها وقارئها كما دخل فيها ثم لا تغني من الأمر شيئاً - كانت كافية ليعترف الخليفة بأن ليس له عذر إن لم يجب طلب هذا الوفد الذي قصده، ولما كانت الأمور بسيطة في ذلك الزمن فقد كان هذا كافياً وحده ليصدر الخليفة أوامره، وما على مأموريه إلا السمع والطاعة وتنفيذ الأوامر من دون حاجة إلى ملاحقة الدوائر وتوسيط الوسطاء وما يتبع ذلك مما نراه في أيامنا!!

أين الله؟؟

كان عبد الله بن عمر ﷺ مع بعض أصحابه في البادية فمر بهم غلام يرعى الغنم، وخطر لعبد الله أن يمتحن هذا الغلام فقال له: بعنا شاة. قال الغلام: ولكن الغنم ليس لي وإنما هو لسيدي صاحبها (وكان الغلام مملوكاً لهذا السيد) قال ابن عمر: قل لسيدك إن الذئب أكلها. فأجاب الغلام: ولكن أين الله؟.

قصة هذا الغلام المملوك تشبه قصة تلك الفتاة الصغيرة التي رفضت طلب والدتها مزج اللبن بالماء لأن عمر منع ذلك، وأجابت والدتها حين قالت لها إن عمر لن يراك (ولكن الله يراني). وتدل القصتان على مدى الإيمان القوي الذي تغلغل في نفوس كل الناس حين بدء انتشار الدين الإسلامي، في الصغير والكبير في الغني والفقير في الرجل والمرأة في الصبي والفتاة في الأبيض والأسود، في الحر والعبد، وأصبح لذلك من البديهي في طبيعة كل إنسان أن يعمل بتعاليم هذا الدين والأخذ بما به أمر وترك ما عنه نهى دون تردد أو تفكير.

أين الله؟. كلمتان اثنتان تحملان أعمق معاني الإيمان، وسؤال يصح في كل زمان ومكان ولكل شعب وكل إنسان.

أين الله؟ لو استذكرها الطبيب قبل إجراء مداخلة جراحية لا لزوم لها بغية كسب الأجر الحرام.

أين الله؟ لو استذكرها القاضي قبل أن يرتشي ليقلب الحق باطلاً والباطل حقاً فيبرئ الجاني ويدين المجني عليه.

أين الله؟ لو استذكرها التاجر قبل أن يغش بضاعته أو يدلس على زبائنه أو يحتكر أو يتعامل بالربا.

أين الله؟ لو استذكرها الزوج قبل خيانة زوجه أو التقصير في واجباته، واستذكرتها الزوجة قبل خيانة زوجها أو التقصير بواجباتها، وما يجر هذا من خراب البيوت وضياع الأولاد وانتشار الفساد.

أين الله؟ لو استذكرها الشباب والطلاب قبل الهروب من المدارس والتسكع في مفارق الطرق وزوايا الملاهي لإضاعة الوقت فيما يضر ولا يفيد.

أين الله؟ لو استذكرها الأستاذ قبل التقصير في واجباته واللهاث وراء الحصول على أكبر عدد من الدروس الخاصة.

أين الله؟ لو استذكرها الحكام في كل عصر وفي كل مصر قبل إهمالهم شؤون الناس وسرقة أموال شعوبهم مباشرة أو بالاحتيال أو بالرشا أو بالهدايا والأعطيات.

أين الله؟ لو استذكرها صانعوا الحروب والمتاجرون في المخدرات والأسلحة قبل سفك دماء الأبرياء وقتل النساء والأطفال والتلذذ بمناظر الخراب والدمار وتشريد الناس.

أين الله؟ لو استذكرها كل إنسان قبل الإقدام على أي عمل لتغير وجه الأرض وانتشر السلام وعم الرخاء وساد العدل وغلبت الفضيلة. ولرأينا عمل كل إنسان وتفكيره كعمل هذا الغلام وتفكيره، وهذا ما يريده الإسلام وما يريد أن يكون عليه المسلمون.

صِبيَةٌ يُجيرون

هذه القصة مأخوذة عن كتاب: مكتب عنبر، للأستاذ المحامي ظافر القاسمي رحمه الله، دون تحريف ولا زيادة أو نقصان، ودون تعليق.

هل سمعت أو قرأت أن صبية قد أجاروا أعداء لهم ولأمتهم؟

أما أنا (وأعوذ بالله من قول أنا) فأشهد أنني لم أسمع بمثل هذا الحادث العظيم من قبل، ولم أقرأ له شبيهاً، في هذا النزر اليسير الذي قرأت من تاريخ العرب والإسلام. ولست أدري كيف أصف هذا الحادث العظيم، ولا كيف أسميه، فإنني منذ سمعته - ورواتُه ثقات مصدَّقون - ومعانيه السامية تضطرم في نفسي، وتغلي بين جوانحي، وتردني إلى عالم رفيع من الأخلاق العربية الأصيلة، التي وجدت لتبقى، ولن تزول مادام تاريخ العرب يقرأ، وما بقي المعجبون بمحاسنه الخالدة متحلين بالتجرد والإنصاف.

والقصة، ولا أجد حرجاً في أن أسميها قصة، لأن الله تعالى يقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ١٢/ ٣]، جرت وقائعها خلال

الثورة السورية، ولعلها في عام ١٩٢٦م على وجه التحديد، وها أنا أنقلها، مقراً بأنني عاجز عن تصويرها كما ينبغي لها أن تصوَّر:

لقد مرّ معك في هذا الكتاب أن ثلاثة من الجند الفرنسيين، قد جيء بهم أيام الثورة السورية إلى مكتب عنبر، وأن أحدهم كان يسمى (لافوريس Laforesse). وقد عرفت أخيراً، أن الثاني منهم كان يسمى (جان فالدان Jean Valdan)، وكان من أرق الشباب الفرنسيين وأرقاهم، يذكر الأساتذة الأحياء في مكتب عنبر - مدّ الله في عمرهم المبارك - أنه كان يدرس الحقوق، أو الآداب، في جامعة ليون (Lyon) الفرنسية، وأنه لم يكن ورفاقه من الجنود، وإنما كانوا من صف الضباط (sous offilcier)، وأن ثالثهم كان يدعى (ريجولو Rigolo).

كان هؤلاء الثلاثة يقيمون ليلهم ونهارهم في مكتب عنبر، وربما خرجوا لبعض حاجاتهم، ولكنهم لا بد أن يكونوا فيه قبل الغروب. وكانت مدينة دمشق، خلال الثورة السورية منطقتين اثنتين، إحداهما تسيطر عليها القوى الفرنسية، وهي محدودة من الجسر الأبيض حتى باب الجابية على خط الترام، ثم امتدت حتى باب المصلى في الميدان. وفيما عدا هذا، كانت المنطقة الثانية، ولايسيطر عليها إلا الثوار، ولا تعرف الحكومة المحلية (كما كنا نسميها في تلك الأيام)، ولا سلطات الانتداب أي نوع من أنواع ممارسة الحكم عليها. ومن المفيد أن أشير هنا، إلى أن الضابط الوحيد لشؤون الناس العامة والخاصة في المنطقة الثانية، أي منطقة الثوار، كان ضابطاً أخلاقياً، وإن شئت قلت وازعاً دينياً، فلم يُعرف خلال هذه الفترة أن جرماً من الجرائم الجنائية قد وقع، لا قتل، ولا سرقة، ولا ما يشبههما. وإذا تشاجر بعض الشباب فيما بينهم، سارع العقلاء إلى مصالحتهم.

ولقد كان مكتب عنبر في المنطقة الثانية، ولست أدري كيف غامر الفرنسيون، وأرسلوا إليه ثلاثة من أبنائهم المدللين. ومهما يكن من شيء،

فإن الواقع كان كذلك. ورأيت الواجب يدعوني لعيادة أستاذنا شكري الشربجي بعد أن أبل من مرضه، وخرج من المستشفى، وأضحى قادراً على استقبال الزائرين. فقصدت إليه يوم السبت ٥/ ١٠/ ١٩٦٣ في داره، وتهللت بشفائه، وحمدت الله على استرداده لصحته. ودارت بيننا أحاديث، فيها من نشوة الماضي ما يسكر، ويعطر جو الجلسة بعبق، كأنه عبق الجنان. وكان مما نبهني إليه، أنني أغفلت حادثاً عظيماً في تاريخ (مكتب عنبر)، لا ينبغي أن يخلو منه الكتاب، لما له من دلالة بعيدة الغور، ولما تحلى به من فروسية عزت على النظير في تاريخنا الحديث، قال رحمه الله:

أنت تعلم أن الأساتذة في (مكتب عنبر) كانوا يتناوبون الرقابة على الطلاب الليليين. وقد اتفق ذات ليلة أن كانت نوبتي في المراقبة. فلما انصرف الطلاب النهاريون، وأغلق المكتب بابه الخارجي، وامتنع على أي كان أن يدخل إليه أو يخرج منه، أويت إلى القاعة الكبرى التي كان يجتمع فيها الطلاب الداخليون، ليكتبوا ويدرسوا فيها، (الايتود Etude). وما كاد الظلام يخيم، ويحل وقت صلاة العشاء حتى جاء خمسة وعشرون ثائراً إلى المكتب، فوجدوا حارسه (كاظم آغا) - وهو أرناؤوطي العرق، شديد المحافظة على الأوامر - يصلي العشاء في الفناء الواقع وراء الباب، فبادروه بلهجة الملتجئ الخائف قائلين:

- كاظم آغا! افتح لنا نختبئ فالدورية تلاحقنا.

فقطع كاظم آغا صلاته، وسارع إلى الباب يفتحه، ويلجئ الثوار الذين تكلفوا الخوف، واصطنعوا الفزع. ولم يكن ممكناً أن تصل قوات فرنسة في مثل تلك الساعة إلى هذه المنطقة، إلا أن الرجل البريء الطاهر، قد صدقهم. فلما أضحوا داخل المكتب، تغيرت لهجتهم، وأربدت وجوههم، وشهروا أسلحتهم، وقالوا للحارس البواب: عندك ثلاثة من الفرنسيين، عليك أن تسلمهم إلينا. فأما كاظم آغا، فضبط

أعصابه، ورحب بهم، وأجلسهم على المقاعد الخشبية التي كانت في الباحة الخارجية، وزعم لهم أنه ذاهب ليأتيهم بالفرنسيين. وهرول إلى أستاذه الشربجي يحدثه بما وقع، فاضطرب أيما اضطراب، ولم يكن في مثل ذلك الظرف أي متسع لتأنيب البواب على فعلته. وكان الطلاب قد سمعوا الحديث، فتوقف الدارس منهم عن الدراسة، والكاتب عن الكتابة، ونهضوا جميعاً، وعددهم قرابة مئة، فانطلق فريق منهم إلى الجنود يعطونهم من ألبستهم المدنية، ما يمكن أن يغير من هيئاتهم، وانطلق الباقون إلى الباحة الخارجية، وكبيرهم - وهو أقلهم - لم يتجاوز الثامنة عشرة، وصغيرهم - وهو أكثرهم - بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، فوجدوا الثائرين بانتظار الجنود على أحر من الجمر. فلما لمحوا الطلاب هبوا من مقاعدهم، وكان لقاء بين الرجال والأطفال استمر أكثر من نصف ساعة، أصر فيه الثوار على استلام الجنود الفرنسيين، وأصر فيه الطلاب على الإباء والرفض. قال واحد منهم:

- ليس مكتب عنبر هو المكان الشرعي لاستلامهم. إن شئتم بلّغناهم مأمنهم، وذهبتم بعدها لاستلامهم من ثكناتهم.

وقال آخر:

- إنهم في جيرتنا وعهدنا وذمامنا، فلن تنالوا منهم.

وقال ثالث:

- ما كنا ننتظر أن تكون (مرجلتكم) عليهم بين جدران المدارس وفي الليل.

واختبط القوم واختلطوا، ولم يعد ممكناً فهم الأحاديث الدائرة، وما كنت تسمع إلا أصواتاً طرية صغيرة غضة تنطلق من حناجر الصبية، وأصواتاً خشنة تصدر عن أفواه الثوار.

ولما يئس الثوار من إمكان تسليم الطلاب للجنود الفرنسيين، هددوا بالقوة، وباللجوء إليها، فلم يكن هذا التهديد إلا من أسباب التهاب حماسة الطلاب، واندفاعهم في الاستمساك بموقفهم، وقال أحدهم:

لكم أن تستعملوا القوة، ولكن لا يمكن أن تصلوا إلى الجنود الفرنسيين إلا بعد أن تفنونا جميعاً، فسنجعل من أجسامنا ترساً لهم، حتى إذا قضيتم على آخر واحد منا، استطعتم أن تصلوا إليهم!

وقد تنبه الثائرون إلى أن الموقف جد، وأن حماسة الصبية صادقة، ولم يكن لهم معهم غرض، وما كان ممكناً أن يصيبوهم بأي أذى، فانصرفوا وهم يبربرون ويزمجرون، بربرة الفاشل، وزمجرة المخفق.

قال أستاذنا الشربجي: وما كاد (كاظم آغا) يفتح لهم الباب، ويخرجون منه، ويعيد إغلاق الباب من جديد، حتى تنفستُ الصعداء، وعادت الطمأنينة إلى قلبي المضطرب، واستبدل الله بخوفي الأمن، وعدت مع الطلاب، لا إلى القاعة الكبرى، ولكن لنتحلق حلقات عدة، ولنتحدث عن هذا الحادث العظيم!

أما الجنود الفرنسيون، فقد خافوا واضطربوا، وعملوا بما أشار عليهم الصبية، فلبسوا ثياب الطلاب المدنية، فكان منظرهم لا ينقضي منه العجب، فهذا لم يصل (البنطلون) إلى أكثر من ركبتيه، وذاك لم يكن أكبر (جاكيت) ممكن اللبس إلا بعد أن تمزق إبطاه، وذياك ارتدى (بنطلوناً) من لون، و(جاكيتاً) من لون آخر، وكانوا في موقف من الفزع، اصطكت له أرجلهم، وهلعت معه قلوبهم، وعمد الصبية إلى إخفائهم في الحمام، واتخذوا في بادئ الأمر فريقاً منهم حرساً لهم، ثم تنبهوا بعد برهة إلى أن حراستهم تكشف عنهم، فتركوهم، ولحقوا برفاقهم إلى الباحة الكبرى.

وحينما رفع الله الغمة وكشفها، وأمن الجنود غائلة القتل المحتم، انضموا إلى الصبية في حلقاتهم، وقال قائلهم، وهو جان فالدان (Jean Valdan)، وهو أرقاهم، موجهاً كلامه إلى أستاذنا الشربجي، ما معناه:

لقد قرأنا في كتب التاريخ العام، أن العرب قد تمتعوا بخصال نبيلة، منها الإجارة والعهد، ولقد كنا نعتقد أن ما جاء في التاريخ ليس إلا أسطورة محضة، أما بعد أن رأينا حوادث اليوم، فقد تأكد لنا أنها حقيقة أكيدة، وعلى كل فرنسي، لا بل على كل أوربي، أن ينحني أمام هذه السجايا التي ركبت فيكم، والمزايا التي هي في جبلتكم. لقد كان موقف طلابك عظيماً، لأننا نعلم أن وجودنا بينهم مفروض عليهم، وأنهم يكرهون، لا إقامتنا بينهم ليس غير، بل يكرهون النظر إلى وجوهنا، ولكنهم حينما جد الجد، كانوا عرباً أصلاء، لا بل أرقى طبقة من العرب الأصلاء، لأننا لم نستجر بهم، ولم نطلب إليهم حمايتنا، وإنما اعتبروا الإجارة ضمنية فيما بيننا وبينهم، وهذا يدعو إلى المبالغة في الإعجاب، وإلى عظيم التقدير.

قال أستاذنا الشربجي: وإذا كانت ذاكرتي لم تخني، فإنني ما زلت أحفظ بعض ألفاظ (فالدان)، فأملى علي الجملة التالية بالفرنسية:

> Nous avons vu en histoire que les Arabes ont appliqué strictement la fidélité à la foi jurée, nous avons cru que c'était une pure légende, mais les événements déroulés, l'ont bien confirmée.

في صباح اليوم الذي زرت فيه أستاذنا الشربجي، كنت أدرس كتاب (الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء) لأختار منه الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بنظام الحكم في الإسلام، ولأضمها إلى المعجم الذي أحاول جمعه وتصنيفه. ومن أعجب الاتفاق، أن آخر ما قرأت في ذلك الصباح، هذه الأسطر التالية:

"وإذا أمّن بالغ من عقلاء المسلمين حربياً لزم أمانه كافة المسلمين.

"والمرأة في بذل الأمان كالرجل.

"والعبد فيه كالحر، سواء كان مأذوناً له في القتال، أو لم يكن.

"ويصح أمان الصبي. نُص عليه"

ولقد دهشت لهذه المصادفة الرائعة، وأيقنت أن الصبية الذين حالوا دون الكارثة، وإن كانوا يجهلون هذا الحكم الشرعي، إلا أنهم عرفوه بفطرتهم وغرائزهم، لأنهم توارثوه جيلاً عن جيل، وطبقة عن طبقة، لا بالتعليم المدرسي، بل بالنظام الاجتماعي السائد.

وبعد فهل قرأت أو سمعت مثل هذا الحادث الفريد؟

شهامة وكرامة

روي أن عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاؤوا به إلى ملكهم فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذن أقتلك، فقال: أنت وذاك. قال: فأمر به فصلب وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل ثم أمر بقدر من نحاس فأحميت وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى فأمر به أن يلقى فيها فرفع في البكرة ليلقى فيها فبكى، فطمع فيه ودعاه فقال: إني إنما بكيت لأن نفسي هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات أنه سجن ومنع عنه الطعام والشراب أياماً ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما أنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك بي، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين. قال: نعم. فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده. فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه رضي الله عنهما.

عن الحافظ ابن عساكر

هذه قصة من قصص البطولات العظيمة وما أكثرها في تاريخ المسلمين، فيها عدة دلالات نرى مثلها متفرقة في قصص أخرى ونراها هنا مجتمعة.

أولاها: الثبات على العقيدة مع التعذيب والترغيب والترهيب حتى الوصول إلى التهديد بالقتل، وشوهد هذا وعرف في أفراد كثيرين بدءاً من بلال ومروراً بخبيب بن عدي ومحمد بن نصر وانتهاءً بأحمد بن حنبل، وغير هؤلاء المئات بل الألوف الذين ملأت قصصهم كتب التاريخ، كما شوهد وعرف في جماعات المسلمين بأسرهم حين حاصرهم المشركون في شعاب مكة وقطعوا عنهم وسائل العيش فلا هان واحد منهم ولا استكان ولا خطر ببال أحدهم الرجوع عن دينه الذي ارتضاه بعقيدة ثابتة وإيمان راسخ لا تزعزعه أعتى الضربات، وبطل قصتنا هذه عبد الله السهمي أبى أن يتنصر بالرغم من المغريات التي لو قدمت لأعاظم الرجال لسبقت رؤوسهم إليها أرجلهم، فمن ذا الذي يعرض عليه أن يكون صهر ملك - أيَّ ملك - ويشاركه ملكه ويأبى ذلك وهو بكامل قواه العقلية، عبد الله السهمي آت من صحراء لا مال له فيها ولا جاه ولا رفاه ولا حتى أبسط مقومات الحياة المتوسطة، ألا يدعو ما عرض عليه إلى فقد العقل وزوال الاتزان والقبول بهذا العرض السخي من دون تردد وبلا قيد ولا شرط، لكن عبد الله رجل لا كالرجال؛ فقد أبى كل هذا النعيم لأنه موعود بما هو أعظم من هذا، إنه موعود بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

وثانيتها: الإيثار الذي زرعه الإسلام في أتباعه فأصبح جزءاً من كيانهم وشوهد هذا كذلك في الأفراد والجماعات، بدا في الجماعات حين آخى الرسول بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار وشاطر الأنصار إخوتهم المهاجرين أموالهم وتجارتهم عن طيب نفس ورضا خاطر، وبدا

في الأفراد في كثير من الحوادث منها حادثة حذيفة العدوي في معركة اليرموك وأصحابه الذين آثر كل منهم زميله بقطرات الماء يبلل بها ريقه قبل موته بلحظات، وأعظمها إيثار أمين الأمة أبو عبيدة بين الجراح وموته بين أفراد جيشه مصاباً بالطاعون الذي أبى أن ينجو منه بنفسه ويتركهم ليفتك بهم جماعات، بالرغم من طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إليه العودة إلى المدينة المنورة.

وبطل قصتنا أبى أن ينجو بنفسه من الأسر مع الإكرام والإجلال وينال ما لا يخطر ببال أحد الوصول إليه، ويترك زملاءه في الجهاد في قبضة أعدائهم لا يدري مصيرهم، فاشترط أن يطلق معه سراح كل أسرى المسلمين، ولو أن الملك لم يحقق له رغبته لبقي معهم أسيراً وكان بهذا مثلاً في الإيثار كما كان مثلاً في الثبات على المبدأ.

وثالثتها: احتفاظ عبد الله بكرامته ما زحزحه عنها تهديد ولا وعيد. وما نفيده نحن من ذلك أن الإنسان الذي يحافظ على كرامته ولا يفرط فيها؛ لأنه يعلم أنه على الحق، يكسب احترام الناس وتقديرهم، ولو كانوا أعداءه؛ فالملك الذي رأى إباء هذا الإنسان الشهم ورفعة أخلاقه لم يطلب إليه تقبيل يده ليطلق سراحه، بل طلب إليه تقبيل رأسه وهو حتماً قد أدرك بفطنته أنه لو طلب منه ذلك لأبى ولوضع نفسه في حرج جديد.

ووافق عبد الله على هذا العرض لقاء إطلاق سراح جميع الأسرى، وهو ثمن مقبول يحفظ العزة ويصون الكرامة.

والملاحظة الرابعة والأخيرة في هذه القصة كلمة قالها عبد الله في سياق رده على الملك في تعليل رفضه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير: "أما أنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك بي". لقد أراد عبد الله إفهام الملك أنه لو أكل وشرب ما قُدم له لم يكن عليه جناح فيما فعل وقد

أحل الله له ذلك حين الضرورة القصوى، وهل هناك ضرورة أكثر من التي كان عليها؟. ولكنه مع ذلك لم يقبل كيلا يمسك عليه الملك ما قد يظن أنه هفوة صغيرة يمكن تفسيرها بالضعف.

عبد الله بن حذافة السهمي إذن مسلم وقدوة للمسلمين جدير بأن تقلّد أفعاله إلى أبد الآبدين.